جمعية أنصار السنة
فــرع بلبيــس
اللجنــة العلميــة

كتاب الواعظ

١-٢

محرم وصفر - ١٤٣٩هـ

إشراف

صبري بن محمد عبد المجيد

أحمد بن سليمان أيوب

إعــداد

اللجنة العلمية

obeikan.com

{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ ، وبعد

فهذه الآية رقم (١١٦) من سورة الأنعام خطاب الله العزيز المجيد لرسوله الخاتم الرحمة للعالمين، سيد الأمة وقدوتها في كل محمود.

قال تعالى {**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**} وهو ﷺ المأمور ببلاغ ما أوحي إلية من ربه، فقال تعالى {**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**} **وقال {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ}** وعليه، فالرسول ﷺ هو الميزان الأكبر الذي تعرض عليه الأشياء فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل " أثر ذلك عن سفيان بن عيينه رحمه الله (ت **١٩٨**هـ).

فلابد في البلاغ عن الله ورسوله أن تكون بالوحي – القرآن وصحيح السنة – ولا تجتمع الأمة على ضلالة ولا حاجة للإجماع في وجود السنة الصحيحة الصريحة، كما نص على ذلك ابن عبد البر (ت **٤٦٣**هـ) في تمهيده.

عندئذ تكون عصمة الله تعالى للمبلِّغ عن الله ورسوله فإن حاد المبلِّغ عن الوحي أو تلاعب فيه فلا عصمة له لأنه لم يبلغ ما أنزل إلية.

وفيها أن الحق لا يكون بيد الأقلين، وهم الطائفة التي لا تزال على الحق، لا يضرها خلاف من خالفها، ذلك لأنها على الوحي صريحاً وظاهراً، وهم تبع للأصحاب الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين هم – الأصحاب الكرام رضي الله عنهم – أوْلى الناس بفهم مراد الله ورسوله، بل هم لسان حال ومقال النبي ﷺ، فمن تبعهم بإحسان هم تبع لهم في الفضل والإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه.

obeikan.com

كما صح عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة: " **لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**"

ثم نرى التعليل في قوله تعالى { **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** } **أي: أكثر الناس ما يتبعون إلا الظن الذي لا أصل له، وعليه فأكثرهم لا بصيرة لهم ولا علم حق لديهم وحالهم ومقالهم هوى نفس، ووسواس شيطان،** إنهم ما يتبعون إلا أقوال الظن ن وما هم فيما يفعلونه ويقولونه إلا خارصون (الخراص: هو الذي يقدّر الشيء بالجزاف والحدس والتخمين) وحسبك علم ربك بهم، فإنه تعالى هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين،

فالعلم الحقيقي في الوحي – القرآن والسنة – فاتبع ما أمرك به ونهاك عنه، ودع عنك طاعة غيره، أولئك الذين يخرصون.

وعليه، فاتباعهم يؤدي إلى الضلال، فلذا لا يتبع إلا أهل العلم الراسخون، لقوله تعالى {**وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**}، **وقوله:** {**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** } **وغير ذلك من الآيات في الباب.**

{ **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } **هذا إخبار عن حال أكثر أهل الأرض من بني أدم، أنه ضلال وبُعْدٌ عن طريق الرحمن،** الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا دخن،

قال تعالى {**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** } **وقال** {**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** } **ويلازمه قوله** {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** }

وهؤلاء وهم في ضلالهم، هم في ظنون كاذبة، وحسبان باطل ن فكيف يتبع اليقين الذي هو الوحي، الظن الذي هو الخرص، والظن لا يغني من الحق شيئاً، فهؤلاء

يتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة فحري أن يحذر الله منه عباده ويصف لهم أحوالهم.

وإن كان هذا خطاب للنبي ﷺ فإن أمته أسوة له في كل شيء عدا التي من خصائصه.

والمقصود أن هذه الآية: دلت على أنه لا يُستدل على الحق بالكثرة ن ولا يدل قلة السالكين إلية على عدمه، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً وأجراً، بل الواجب أن يُستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إلية، فما هي؟ وما ضوابطها؟

ودلت على لزوم اتباع الأوامر، واجتناب النواهي، لأنه الشارع الحكيم إذا أمر بشيء فلمصلحة خالصة فيه أو راجحة، وإذا نهى عن شيء فلمفسدة خالصة أو راجحة.

قال تعالى {**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**} وقال {**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**}

فالثبات على هذا الطريق الحق، طريق العزة والتمكين والقوة للفرد والأسرة والمجتمع والأمة، وإلا فلا نسأل الله العفو والعافية والسعادة في الدنيا والآخرة.

كتبه

صبري محمد عبد المجيد

obeikan.com

دروس وعبر من حديث الهجرة

روى البخاري ومسلم عَنِ الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، مِنْ عَازِبٍ رضي الله عنه رَحْلاً بِثَلاَثَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعَازِبٍ مُرِ الْبَرَاءَ فَلْيَحْمِلْ إِلَيَّ رَحْلِي فَقَالَ عَازِبٌ لاَ حَتَّى تُحَدِّثَنَا كَيْفَ صَنَعْتَ أَنْتَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ خَرَجْتُمَا مِنْ مَكَّةَ وَالْمُشْرِكُونَ يَطْلُبُونَكُمْ قَالَ ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ فَأَحْيَيْنَا، أَوْ سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى مِنْ ظِلٍّ فَآوِيَ إِلَيْهِ فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ اللهِ فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ مَا حَوْلِي هَلْ أَرَى مِنَ الطَّلَبِ أَحَدًا فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ يَسُوقُ غَنَمَهُ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلاَمُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ فَهَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لَبَنًا قَالَ نَعَمْ فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ ضَرْعَهَا مِنَ الْغُبَارِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ كَفَّيْهِ فَقَالَ هَكَذَا ضَرَبَ إِحْدَى كَفَّيْهِ بِالأُخْرَى فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ وَقَدْ جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِدَاوَةً عَلَى فَمِهَا خِرْقَةٌ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَافَقْتُهُ قَدِ اسْتَيْقَظَ فَقُلْتُ اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللهِ "فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ"، ثُمَّ قُلْتُ قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ بَلَى فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَا فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا أُرَى فَقَالَ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي، فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ.

فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَى فَرَجَعَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَا هُنَا فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ - قَالَ - وَوَفَى لَنَا(١).

وفي حديث هجرته صلوات الله وسلامه عليه دروس وعبر نستنير بها في حياتنا، ونستذكر أيام عزنا،

ومن أهم الدروس والعبر المستفادة من هجرته ﷺ:

١-أن الصراع بين الحق والباطل باقٍ إلى قيام الساعة:

ولا يزال الصراع بين الحق والباطل باقيًا إلى أن يشاء، وذلك منذ طرد إبليس من رحمة الله والجنة، وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، فالشر قائم في دنيا الناس ما بقي الشيطان، وهذه سنة كونية أرادها الله عز وجل ليبتلي عباده، ويميز الله الخبيث من الطيب، وصدق الله إذ يقول: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [العنكبوت: ٢ - ٤]

ولكن راية الباطل وإن ظهرت وارتفعت فلن تطول ولن تدوم، ولذا لما اشتد إيذاء المشركين للنبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، جاء الفرج والنصر من الله فأسري بالنبي ﷺ وفرضت الصلاة وجاء نفر يثرب ليبايعوا النبي ﷺ على السمع والطاعة والنصرة في المنشط والمكره، ثم أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة بقوله ﷺ: " قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ "(٢).

---

(١) أخرجه البخاري(٣٦٥٢)، ومسلم(٧٧٠٦).

(٢) أخرجه البخاري(٢٢٩٧).

٢-الأخذ بالأسباب من أهم عوامل النصر:

لم يتكل النبي ﷺ على نبوته بقوله أنا نبي من عند الله والدين دين الله وهو ناصر دينه لا؛ ولكن مع يقينه في نصر الله له إلا أنه علم البشرية في شخصه كيفية الأخذ بالأسباب والإعداد الجيد لهجرته فتجهز رسول الله ﷺ ورتب لأمر الهجرة ترتيبًا جيدًا وانتظر الإذن من قِبلِ الله له في الهجرة.

والمثل بالمثل حال أبي بكر رضي الله عنه، وهو أكثر الناس تأسيًا برسول الله ﷺ، وذلك لما أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة، تَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ قَالَ نَعَمْ فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ(١).

ولذا أمر الله عز وجل عباده بالأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة لمواجهة أعدائهم فقال سبحانه: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠]

٣-تمام اليقين في نصر الله ووعده:

قد ينظر البعض منا إلي حال أمتنا اليوم، وما أحاط بها من الانهزام والتراجع والخذلان، وتكالب الأمم عليها من كل جانب، فيشك في وعد الله ونصره، فالباطل مهما فشا وانتشر فهو إلى زوال، تعلمنا ذلك من حبيبنا محمد ﷺ ومن هجرته، فقد كان ﷺ في أشد المواقف وأصعبها يتذكر وعد الله له بالنصرة والتأييد ففي الحديث عَنْ

(١) أخرجه البخاري(٢٢٩٧).

أَنَسٍ ﷺ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا فَقَالَ مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا(١).

وفي حديث البراء بن عازب ﷺ وعن أبيه، المذكور آنفًا، وفيه " ثُمَّ قُلْتُ –أبوبكر– قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ بَلَى فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَا فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}".

ولله در القائل:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فكونوا على يقين في وعد الله، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر.

٤-تمام الصحبة:

ومن أعظم الدروس التي نتعلمها من حديث هجرة نبينا ﷺ، فقد كان النبي ﷺ وصديقه أبو بكر كلاهما نعم الصاحب لصاحبه ونعم الخليل لخليله، فهذا رسول الله ﷺ لما أذن في الخروج إلى المدينة ذهب إلى بيت أبي بكر ﷺ فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ ﷺ "أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ "، قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ قَالَ أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ قَالَ الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: "**الصُّحْبَةَ**"(٢).

وكان النبي ﷺ منعه قبل ذلك من الهجرة، فطمع أبو بكر في صحبة النبي ﷺ في الهجرة، فوفى له النبي ﷺ وحقق له ما تمناه، وهناك الكثير من المواقف التي تدل على

---

(١) أخرجه البخاري(٣٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري(٢١٣٨) عن أم المؤمنين عائشة ﷺ.

حسن وفاء النبي ﷺ وجميل صحبته وهذا أمر لا يحتاج إلى برهان أو دليل صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا الصديق أبوبكر رضي الله عنه لم يكن على قدر من الوفاء بعيد من النبي ﷺ فهو أفضل الناس بعد الأنبياء وأقرب الناس إلى حبيب الرحمن ﷺ.

ففي حديث الهجرة: قَالَ أبوبكر رضي الله عنه، ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ فَأَحْيَيْنَا، وفيه " فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ اللهِ فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ "، ثُمَّ انْطَلَقْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ، فَقُلْتُ هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ فَهَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لَبَنًا قَالَ نَعَمْ فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ وَقَدْ جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِدَاوَةً عَلَى فَمِهَا خِرْقَةٌ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَافَقْتُهُ قَدِ اسْتَيْقَظَ فَقُلْتُ اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللهِ "**فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ**".

وقوله: "**فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ**"، تعبير لطيف من الصديق رضي الله عنه عما طبع عليه من حب رسول الله ﷺ والمراد أنه ﷺ شرب من اللبن ما يكفيه فسكن به اضطراب الصديق رضي الله عنه الذي حدث له بما رأى عليه ﷺ من أثر الجوع فإن المحب الصادق يرتاح براحة الحبيب أكثر مما يرتاح بها الحبيب فعبر عن راحة قلبه بذلك بالرضى تجوزًا[1].

فلله در أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ما أحسن تدبيره وما أعظم صحبته لسيد المرسلين وإمامهم.

٥-المسجد أساس بناء الأمة:

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد قُدومه المدينة هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول:

---

(١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لأبي ياسين الهرري(٢١/ ١١٣).

اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة

وكان يقول:

هذا الحِمَالُ لا حِمَال خَيْبَر هذا أَبَرُّ رَبَّنَا وأطْهَر

وَجَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ وَهُمْ يَنْقُلُونَ اللّبِنَ وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ فِي رَجْزِهِ:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالرّسُولُ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنّا الْعَمَلُ الْمُضَلّلُ

وكانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غَرْقَد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخَرِب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعُمُده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع.

وبني بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب.

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون [1].

---

(١) وانظر زاد المعاد لابن القيم(٣/ ٥٥)، و الرحيق المختوم للمباركفوري(ص: ١٤٣).

٦-تمام الأخوة وحسن البذل والإيثار:

ودرس آخر نتعلمه أن أخوة الإيمان أوثق من أخوة النسب، ولا يكمل إيمان العبد حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وممن اتصف بهذه الصفات الرفيعة أنصار رسول الله ﷺ، لما علموا بمقدم إخوانهم المهاجرين إليهم استقبلوهم بأفضل ترحاب فهيئوا لهم المسكن واقتسموا الثمار بينهم، حتى وصل الحال أن كان الواحد منهم يعرض زوجاته على أخيه أيتهن أحب ينزل له عنه كما حدث مع عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري، فعن أنس رضي الله عنه، قال: "لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ نَزَلَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ فَنَزَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ عَلَى سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ أُقَاسِمُكَ مَالِي وَأَنْزِلُ لَكَ عَنْ إِحْدَى امْرَأَتَيَّ قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ فَخَرَجَ إِلَى السُّوقِ فَبَاعَ وَاشْتَرَى"(١).

وقد أثنى الله عز وجل على فعل الأنصار بقوله: { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر: ٩]

٧-نصر الله قريب وبعد العسر يسر:

لقد حكى لنا التاريخ حال النبي ﷺ وأصحابه قديمًا كم كانوا مضطهدين وكم كانوا جياعًا وكم أوذوا وكم كانوا قلة مقارنة بأعدائهم، ولكنهم صدقوا الله عز وجل وأخذوا بأسباب النصر وتخلصوا من حظوظ أنفسهم فاستحقوا النصر والتمكين من الله لهم، {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٦]

فأبشروا بوعد الله ونصره فإن الله عز وجل تكفل بنصرة دينه وعباده المؤمنين فقال سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]

---

(١) أخرجه البخاري(٥١٦٧).

ولا يكون النصر إلا بالإيمان بالله والصبر على قضائه والثبات في أمره قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]

فكونوا واثقين في وعد الله، ولا يتسرب اليأس إلى قلوبكم، وانتفعوا بموعظة النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنه، حيث قال له: " يَا غُلامُ، أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟ " فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ ﷺ: " احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "(١).

قال ابن رجب: "وكم قصَّ سبحانه من قصص تفريجِ كُرُباتِ أنبيائه عند تناهي الكَرْب كإنجاء نوح ومَنْ معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه، وإنجاء موسى وقومه من اليمِّ، وإغراق عدوِّهم، وقصة أيوب ويونس، وقصص محمَّدٍ ﷺ مع أعدائه، وإنجائه منهم، كقصته في الغار، ويوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد(٢٨٠٤)، والترمذي(٢٥١٦)، وصححه الألباني في الجامع الصغير(١٣٩١٧)، ومشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

وقوله ﷺ: "فإنَّ مَعَ العسر يسراً" هو منتزع من قوله تعالى: {سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً}، وقوله – عز وجل –: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً}.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عَنْ أَسْلَمَ، أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه حُصِرَ بِالشَّامِ، وَنَالَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، يَقُولُ: " مَهْمَا يَنْزِلْ بِأَمْرِكَ شِدَّةٌ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ بَعْدَهَا فَرَجًا، وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، وَإِنَّهُ يَقُولُ: {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠](١).

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر: أنَّ الكربَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى، وحصل للعبد الإياسُ من كَشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبُه بالله وحده، وهذا هو حقيقةُ التوكُّل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلَبُ بها الحوائجُ، فإنَّ الله يكفي من توكَّل عليه، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}(٢).

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: قَالَ: سَمِعْتُ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ، يَقُولُ: " اذْكُرُوا اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ يَذْكُرْكُمْ فِي الشِّدَّةِ، فَإِنَّ يُونُسَ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا ذَاكِرًا لِلَّهِ، فَلَمَّا وَقَعَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ قَالَ اللَّهُ: " {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٤] "، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ عَبْدًا طَاغِيًا نَاسِيًا لِذِكْرِ اللَّهِ فَلَمَّا

{ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩٠، ٩١] "(٣).

---

(١) الأثر أخرجه مالك في الموطأ(٩٦١) مرسلا عن زيد بن أسلم، وابن أبي الدنيا في الفرج (٣١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٨٣٤)كلاهما عن أسلم.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب(٢/ ٥٨٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة مصنفه(٣٤٧٩٤).

منـــزلةُ المُحَـــاسِبَةِ

إن من عادة التجار أن يقوموا بجرد لحساباتهم ليقفوا على ما أنتجوه، حتى يعلموا أأرباح تحققت لديهم أم خسائر؟! ، ومع ذلك يغفل الكثير من الناس عن محاسبة نفسه على ما مضى من عمره، أخيرٌ قدم فيسعد ويبشر بفضل من الله ورضوان، ثم يسأل ربه الثبات على الطاعة إلى الممات فإن المرء لا يدري بما يختم له من العمل، أم أساء فيفيق من غفلته ويتوب إلى ربه ويحسن فيما بقي من عمره.

فلا تكونوا من الغافلين. . . . . فقد حذرنا ربنا تبارك وتعالى من الغفلة وحثنا على التقوى ومحاسبة النفس وضرورة ادخار العمل الصالح ليوم القيامة حتى نكون من الناجين يوم يقوم الناس لرب العالمين، فقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ١٨ - ٢٠]

فأمر الله عباده أن يجعلوا لأنفسهم وقاية من عذابه بأداء الفرائض واجتناب المعاصي؛ فقال سبحانه: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ }؛ **قال الطبري:** " ولينظر أحدكم ما قدّم ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيئات التي توبقه؟ "[1].

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، {

(١) انظر تفسير الطبري(٢٣/ ٢٩٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ } تأكيد ثان، { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير "(١).

معنى المحاسبة

ومعنى المحاسبة كما يقول الهروي: هِيَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا لَهُ وَعَلَيْهِ، فَيَسْتَصْحِبُ مَا لَهُ، وَيُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ مُسَافِرٌ سَفَرَ مَنْ لَا يَعُودُ.

وَلَا تَكُونُ الْمُحَاسَبَةُ إِلَّا بَعْدَ تَصْحِيحِ التَّوْبَةِ.

وَقد قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتُزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨]

أَوْ قَالَ: عَلَى مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ "(٢).

إذن قبل المحاسبة لا بد من المبادرة بالتوبة.

كيف يحاسب المرء نفسه؟

قال الماوردي: " ثُمَّ عَلَيْهِ -أي الإنسان- أَنْ يَتَصَفَّحَ فِي لَيْلِهِ مَا صَدَرَ مِنْ أَفْعَالِ نَهَارِهِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْطَرُ لِلْخَاطِرِ وَأَجْمَعُ لِلْفِكْرِ. فَإِنْ كَانَ مَحْمُودًا أَمْضَاهُ وَأَتْبَعَهُ بِمَا شَاكَلَهُ وَضَاهَاهُ، وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا اسْتَدْرَكَهُ إِنْ أَمْكَنَ وَانْتَهَى عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ "(٣).

فالمحاسبة أن تخلو بنفسك ولو دقائق تحاورها: ماذا فعلت؟ ماذا قلت؟ لِمَ أعطيت؟ لِمَ غضبت؟ لِمَ رضيت؟ لِمَ منعت؟ لِمَ وصلت؟ لم قطعت؟ لماذا تركت كذا؟ ولماذا فعلت كذا؟ هيئ نفسك بهذه الأسئلة للعرض على الله تبارك وتعالى، وضع لكل سؤال منها جواب.

ولنعلم أن محاسبة النفس في الدنيا أهون بكثير من محاسبة الآخرة.

---

(١) تفسير ابن كثير(٨/ ٧٧).

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم(١/ ١٨٧).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي(ص: ٣٥٦).

openkan.com

قال مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ يقول: " رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ لِنَفْسِهِ: أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ ثُمَّ ذَمَّهَا، ثُمَّ خَطَمَهَا، ثُمَّ أَلْزَمَهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ لَهَا قَائِدًا"(١).

وقال يونس بن عبيد: "الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين"(٢).

هكذا كان حال الصحابة والتابعين لهم والصالحين من هذه الأمة، حالهم كما في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٦٠، ٦١]

ومن الأسباب التي تساعد على محاسبة النفس:

- أن تقايس بين نعم الله عليك وما جنيت من المعاصي:

وَبِهَذِهِ الْمُقَايَسَةِ يَتَبَيَّنُ لَكَ حَقِيقَةُ النَّفْسِ وَصِفَاتُهَا، وَعَظْمَةُ جَلَالِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَفَرُّدِ الرَّبِّ بِالْكَمَالِ وَالْإِفْضَالِ، وَأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلَّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، فَإِذَا قَايَسْتَ ظَهَرَ لَكَ أَنَّهَا مَنْبَعُ كُلِّ شَرٍّ، وَأَسَاسُ كُلِّ نَقْصٍ، فَهُنَاكَ تَقُولُ حَقًّا " **أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي** "(٣).

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِرضي الله عنه، أَنَّه قَالَ: "لَا تَفْقَهُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَمْقُتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ثُمَّ تَرْجِعَ إِلَى نَفْسِكَ فَتَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا"(٤).

-عدم الرضا والاغترار بالطاعة:

---

(١) اعتلال القلوب للخرائطي (٣٨).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم(٢/ ٢٢).

(٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم(١/ ١٨٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه(٣٤٥٨٤).

قال ابن القيم: "رِضَاءُ الْعَبْدِ بِطَاعَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَجَبِ وَالْكِبْرِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ وَنَحْوِهَا.

وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيْبَ الطَّاعَاتِ، لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكَ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمْرُ لَمَا أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى مَثَلِ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا رَضِيَهَا لِسَيِّدِهِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَفْدَهُ وَحُجَّاجَ بَيْتِهِ بِأَنْ يَسْتَغْفِرُوهُ عُقَيْبَ إِفَاضَتِهِمْ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَهُوَ أَجَلُّ الْمَوَاقِفِ وَأَفْضَلُهَا، فَقَالَ {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]

وَقَالَ تَعَالَى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [آل عمران: ١٧]

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: "مَدُّوا الصَّلَاةَ إِلَى السَّحَرِ، ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ"(١)،

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، "كَانَ إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ"، وَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَالْقِيَامِ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْبَائِهَا، وَقَضَاءِ فَرْضِ الْحَجِّ، وَاقْتِرَابِ أَجَلِهِ، فَقَالَ فِي آخِرِ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ١ - ٣].

---

(١) مختصر قيام الليل لابن نصر المروزي(ص: ٩٦).

فَهَذَا شَأْنُ مَنْ عَرَفَ مَا يَنْبَغِي لِلَّهِ، وَيَلِيقُ بِجَلاَلِهِ مِنْ حُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ وَشَرَائِطِهَا، لَا جَهْلَ أَصْحَابِ الدَّعَاوِي وَشَطَحَاتِهِمْ(١).

السلف ومحاسبة النفس

-ومن الأسباب التي تعين على محاسبة النفس:

الاطلاع على أخبار السلف في محاسبتهم لأنفسهم، فعليك إن كنت من المحاسبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين؛ لينبعث نشاطك ويزيد حرصك.

ومن تتبع سير سلفنا الصالح وجدهم من أشد الناس محاسبة لأنفسهم، فما يصدر من أحدهم تقصير أو زلة إلا ويسارع في معالجتها مع معاقبة نفسه على تقصيره، و من أعظم الناس محاسبة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، **فهذا عمر بن الخطاب** ﷺ كان أشد الناس محاسبة مع عظم مكانته في الإسلام وهو الذي صحب النبيﷺ وبشره بالجنة ومات ﷺ وهو عنه راضٍ؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺقَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺوَخَرَجْتُ مَعَهُ، حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، بَخٍ بَخٍ، وَاللَّهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللَّهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ(٢).

وعن الأحنف بن قيس ﷺ أن رجلاً لقي عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: "يا أمير المؤمنين، انطلق معي فأعدني على فلان فإنه ظلمني". قال: فرفع الدرة فخفق بها رأسه، وقال: "تدعون عمر وهو مُعرِضٌ لكم حتى إذا اشتغل بأمرٍ من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني، أعدني".

فانصرف الرجل وهو يتذمّر، فقال عمر ﷺ: "عليّ بالرجل"، فألقى إليه المخِفقة، فقال: "أمسك"، قال: "لا ولكن أدعها لله ولك"، قال: "ليس كذلك، إما تدعها لله

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم(١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ(٢٨٣٧).

وإرادة ما عنده، أو تدعها لي فأعلم ذلك". قال: "أدعها لله"، قال: "انصرف". ثم جاء يمشي حتى دخل منزلة، ونحن معه، فافتتح الصلاة، فصلى ركعتين، ثم جلس، فقال: "يا ابن الخطاب، كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزّك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين، لجاء رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ "، **فجعل يعاتب نفسه**(١).

وهذا إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ يقول: " مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ أُعَالِجُ أَغْلاَلَهَا وَسَعِيرَهَا، وَآكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا، فَقُلْتُ: يَا نَفْسِي، أَيَّ شَيْءٍ تَشْتَهِينَ؟ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا أَعْمَلُ عَمَلاً أَنْجُو بِهِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، وَمَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ مَعَ حُورِهَا، وَأَلْبَسُ مِنْ سُنْدُسِهَا وَإِسْتَبْرَقِهَا وَحَرِيرِهَا، فَقُلْتُ: يَا نَفْسِي، أَيَّ شَيْءٍ تَشْتَهِينَ؟ قَالَتْ: أَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا فَأَعْمَلُ عَمَلاً أَزْدَادُ مِنْ هَذَا الثَّوَابِ. فَقُلْتُ: أَنْتِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْأُمْنِيَّةِ "(٢).

وكان أَيُّوبَ السختياني يَقُولُ: "إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ كُنْتُ عَنْهُمْ بِمَعْزِلٍ"(٣).

ثمرات محاسبة النفوس

وفي محاسبة النفس صلاح القلب وسلامته، وهلاك القلب في إهمال محاسبتها وموافقتها واتباع هواها، **ومن ثمرات المحاسبة:**

١-الاطلاع على عيوب النفس:

وهذا يورث العبد انكسارًا وتذللاً لله عز وجل، ويورث مخافة الله جل جلاله ومهابة لقائه، وفي ذلك دافع للإقبال على كل خير، كما في الحديث عن أَبَي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه،

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر لابن الجوزي(ص: ١١١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢١١).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم(٣/ ٥).

قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ"(١).

فمن خشي الله أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر، والخوف من لوازمه الإقبال على عمل الآخرة والمبادرة بالعمل الصالح خوف القواطع والعوائق(٢).

٢-التعرف على حق الله عليك:

قال ابن القيم: "فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العباد فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه واليأس من نفسه وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته فإن من حقه أن يطاع ولا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر، فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علم علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة وأنه إن أحيل على عمله هلك فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته، وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك ينظرون في حقهم على الله ولا ينظرون في حق الله عليهم ومن ههنا انقطعوا عن الله وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه"(٣).

٣-تزكية النفس وتطهيرها:

وقد قال الله عز وجل: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٧ - ١٠]

---

(١) أخرجه الترمذي(٢٤٥٠)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١١١٦٧).

(٢) انظر فيض القدير للمناوي(٦/ ١٥٩).

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ٨٨).

والمعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله -كما قال قتادة-وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، { وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدَى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل(١).

ومن ثمرات محاسبة النفس أيضًا:

٤-من حاسب نفسه حسن ثوابه وعظم جزاؤه:

قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠، ٤١]

قال ابن كثير: "أي: خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، ورَدها إلى طاعة مولاها { فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء"(٢).

٥-دليل على صلاح الإنسان:

قال الحسن البصري: "إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هَمِّهِ"(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤١٢).

(٢) تفسير ابن كثير(٨/ ٣١٨).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم(٢/ ١٤٦)، و محاسبة النفس لابن أبي الدنيا(ص: ٧).

obeikan.com

الصلاة..... أمُّ العبادات

لقد كان حنين الرعيل الأول إلى الصلاة وإيثارهم إياها على كل ما حُبِّبَ إلى النفس البشرية، ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها، فقد كانت الصلاة أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، وقد عُرف ذلك لا عند المسلمين فحسب؛ لكنه كان معلومًا أيضاً عند المشركين أنفسهم، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْمًا مِنْ جُهَيْنَةَ فَقَاتَلُونَا قِتَالاً شَدِيدًا فَلَمَّا صَلَّيْنَا الظُّهْرَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ لَوْ مِلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً لاَقْتَطَعْنَاهُمْ.

فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ - وَقَالُوا - المشركين- "**إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلاَةٌ هي أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَوْلاَدِ**"(١).

هكذا كان حال الصحابة مع الصلاة وما فُرض عليهم، وعلى طريقتهم سار التابعون فهذا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: "مَا دَخَلَ عَلَيَّ وَقْتُ صَلاَةٍ إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ أُهُبَّتَهَا وَلَا دَخَلَ عَلَيَّ قَضَاءُ فَرْضٍ إِلَّا وَأَنَا إِلَيْهِ مُشْتَاقٌ"(٢).

لو قارنا حال هؤلاء بحال الكثير من المسلمين في زماننا لوجدنا بونًا شديدًا.

نعم لقد غفل الكثير في زماننا عن أعظم فريضة فرضها الله على عباده، ولا ندري ما السبب في تهاون المتهاونين بالصلوات والجماعات؟!

أغاب عنهم عظيم فضلها أم نسي هؤلاء عاقبة تركها والتهاون فيها؟!

الأدلة على عظم فضل الصلاة

لقد كثرت الأدلة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ التي تدل على عظم الصلاة وفضلها، ومن جملة ذلك:

---

(١) أخرجه مسلم(١٩٨٣).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم(٢/ ١٦٣).

١-الصلاة فسطاط الإسلام وعموده:

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ**"(١).

قال ابن رجب: "فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاطُ ولا يثبتُ إلا به، ولو سقط العمودُ، لسقط الفسطاط، ولم يثبت بدونه"(٢).

٢-الصلاة أمرُ الله تعالى:

قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: **٥**]

وقال سبحانه لنبيه ﷺ: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ} [إبراهيم: **٣١**]

٣- الصلاة قرينة العبادات:

إن أكثر العبادات ذكرًا في القرآن الكريم الصلاة، **فتارة تقرن بالصبر** قال سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: **١٥٣**]

وقال جل جلاله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: **٤٥**]

وكثيرًا ما تقرن بالزكاة، كما في قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: **٤٣**]

وتارة تقرن بالجهاد قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج: ٧٧، ٧٨]

---

(١) أخرجه الترمذي(**٢٨٢٥**)، والنسائي(**١١٣٣٠**)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (**٥١٣٦**).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (**٥/ ٤**).

oberikan.com

٤-الصلاة قرة العيون:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ"(١).

فالصلاة محِل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وربه ولا شيء أقر لعين العبد منها، ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تطيب حياته"(٢).

٥-الصلاة ميزان عمل العبد المسلم:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ"(٣).

قال ابن القيم: "ولو قبل منه شيء من أعمال البر لم يكن من الخائبين الخاسرين "(٤).

٦-الصلاة سبيل الفلاح والنجاح:

فقد ذكر ربنا تبارك وتعالى من وصف المؤمنين الذين استحقوا الفلاح والنجاح والفوز بالجنة والنجاة من النار فقال سبحانه: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}، وقال عنهم: { وَالَّذِينَ هُمْ

---

(١) أخرجه أحمد(١٢٣١٥)، والنسائي(٣٩٤٠) وهذا لفظه.

(٢) وانظر فتح الباري لابن حجر(١١/ ٣٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي(٤١٣) وهو لفظه، والنسائي في الكبرى(٣٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير(٢٠٢٠).

(٤) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم(ص: ٤٨).

عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١ - ١١]

٧-الصلاة تعصم العبد من ارتكاب الفواحش والمنكرات:

قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥]

قال السعدي: "ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }"(١).

٨-الصلاة مفزع المؤمنين وملجأهم في الكربات:

فقد أمر الله عباده وأوصاهم بالاستعانة بالصلاة في الشدائد فقال سبحانه: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]

وقال جل جلاله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ } [البقرة: ١٥٣]

ولما اشتد إيذاء المشركين للنبي ﷺ خاطبه ربه بقوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٧ - ٩٩]

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٣٢).

وهكذا كان هديه ﷺ ففي صلاة الكسوف والخسوف صلى النبي ﷺ بالناس ثم قال: " إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلاَ لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُرِيهِمَا عِبَادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلاَةِ"(١).

فالصلاة هي الفريضة الوحيدة التي لا تسقط عن المسلم المكلف بأي حال من الأحوال إلا إذا كان هناك ما يمنع تكليفه كالمجنون الذي فقد عقله، ففي الخوف وشدة البأس ووقت القتال وفي أصعب الأوقات لا تسقط الصلاة بل شرعت صلاة الخوف، والمسلم إن عجز عن القيام في الصلاة، رخص له في القعود فإن عجز فعلى جنب فإن عجز فله أن يومأ بصلاته، فالصلاة جُنة المسلم وسلاحه، والمِفتاح الذي يفتح به كل قفل، ويكشف به كل هم وغم، ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم المقصد من تشريع الصلاة ولذا يقول

عَبْدِ اللَّهُ بن مَسعُود: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّى هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِى بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِى الصَّفِّ"(٢).

---

(١) أخرجه البخاري(١٠٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٢٠).

هكذا كان فهم الصحابة لدين الله عز وجل وما فرضه سبحانه وتعالى، **وما نراه اليوم في زماننا من صور التهاون في أعظم الفرائض-الصلاة- والتكاسل عن أدائها في أوقاتها لمن أعظم المصائب التي حلت بأمتنا ولا حول ولا قوة إلا بالله.**

صور من تهاون البعض بالصلاة

لقد تعددت صور التهاون بالصلاة في زماننا وتنوعت فمنها:

**من يجلسون على المقاهي ليل نهار لا يرعون حق الله عليهم ولا يعرفون لأي مسجد طريق.

**ومنهم المدعي أن العمل عبادة فينشغل عن أداء الصلاة في سبيل عرض من الدنيا، وإن صلى ما عليه، جمع تلك الفروض في آخر يومه، محتجًا بأنه شغل بسبب طلب الرزق فأي رزق يرجوه من لا يرعى حق الله عليه، وأي عمل يتعبد به من لم يمتثل أمر الله ويحافظ على فرائض خالقه ورازقه ومليكه.

**ومنهم العاكفون على شبكات الإنترنت ليل نهار، والمتابعون للاعبي الكرة والمباريات، ومنهم العاكف على سماع الأفلام والمسلسلات، وأخبار الفنانين والفنانات، والبرامج الساقطة دون خشية حساب من الله عز وجل.

**ومنهم مُدعي الاجتهاد بحجة أني لا أستطيع المحافظة على أداء الصلاة لتعارضها مع أوقات الدروس أو المحاضرات أو المذاكرة، أو النوم لأجل أنه متعب بسبب الدراسة وغير ذلك مما يدعون، فأي تفوق يُرجى بذلك إن عصيت من بيده ملكوت كل شيء.

تلك بعض الصور من تهاون البعض في أداء الصلاة، ولقد توعد ربنا تبارك وتعالى من يتهاون ويتكاسل عن المحافظة على وقت الصلاة فقال سبحانه: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٤ - ٥]

ووصف النبي ﷺ من يؤخر الصلاة عن وقتها فقال ﷺ: "تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً "(١).

وهذا وصف المنافقين في كتاب رب العالمين بأنهم: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً} [النساء: ١٤٢]

وسمى النبي ﷺ الذي لا يتم الصلاة سارقًا، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ أَسْوَأَ النَّاسِ سَرِقَةً - قَالَ: - الَّذِي يَسْرِقُ صَلاَتَهُ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْرِقُهَا؟ قَالَ: "لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا"(٢).

وعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُخَيْمِرَةَ: فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩]

قَالَ: أَضَاعُوا الْمَوَاقِيتَ، وَلَمْ يَتْرُكُوهَا، وَلَوْ تَرَكُوهَا صَارُوا بِتَرْكِهَا كُفَّارًا(٣).

وقال البيهقي: "فَذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَمَدَحَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ خَالَفَ مَذْهَبَهُمْ فَذَمَّهُمْ، قَالَ تَعَالَيْ: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا يُؤَدِّيهِمْ ذَلِكَ إِلَيْهِ مِنْ سَوْءِ الْعَاقِبَةِ، قَالَ {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩] يَعْنِي - وَاللهُ أَعْلَمُ - لَا يَرْشُدُ أَمْرُهُمْ مَعَ إِضَاعَةِ الصَّلاَةِ، وَلَكِنَّهُمْ يُغْوُونَ فَلاَ يَزَالُونَ يَقَعُونَ فِي فَسَادٍ بَعْدَ فَسَادٍ كَمَنْ

---

(١) أخرجه مسلم(١٤٤٣)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد(١١٥٤٩)، وأبو يعلى في مسنده(١٣١١)، والطبراني في الكبير(٣٢٠٧)، والطيالسي(٢٣٣٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٩٨٨).

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة (٢٧٠)، والسنة لأبي بكر بن الخلال (١٣٨٠)، وتعظيم قدر الصلاة للمروزي(٣٩).

يَضِلُّ الطَّرِيقَ، فَلاَ يَزَالُ يَقَعُ فِي مَهْلَكَةٍ بَعْدَ مَهْلَكَةٍ إِلَى أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِ، فَيَفْسَدُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ الصَّلاَةِ، وَجَلاَلِ مَوَاقِعِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَاللهُ أَعْلَمُ "(١).

وحكى الإمام الذهبي عَن بعض السلف أَنه أَتَى أُخْتًا لَهُ مَاتَت فَسقط كيس مِنْهُ فِيهِ مَال فِي قبرها فَلم يشْعر بِهِ أحد حَتَّى انْصَرف عَن قبرها ثمَّ ذكره فَرجع إِلَى قبرها فنبشه بَعْدَمَا انْصَرف النَّاس فَوجدَ الْقَبْر يشتعل عَلَيْهَا نَارًا فَرد التُّرَاب عَلَيْهَا وَرجع إِلَى أمه باكياً حَزِينًا فَقَالَ يَا أُمَّاهُ أَخْبِرِينِي عَن أُخْتِي وَمَا كَانَت تعْمل قَالَت وَمَا سؤالك عَنْهَا قَالَ يَا أُمِّي رَأَيْت قبرها يشتعل عَلَيْهَا نَارا قَالَ فَبَكَتْ وَقَالَت يَا وَلَدي كَانَت أختك تتهاون بِالصَّلاَةِ وتؤخرها عَن وَقتهَا، فَهَذَا حَال من يُؤَخر الصَّلاَة عَن وَقتهَا فَكيف حَال من لَا يُصَلِّي فنسأل الله تَعَالَى إِن يعيننا على الْمُحَافظَة عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتهَا إِنَّه جواد كريم(٢).

فيا مقصر في أداء الفروض والصلوات، ويامن تؤخر الصلاة عن وقتها أفق من غفلتك قبل حسرتك، وقبل ندمك يوم لا ينفع الندم، فإن الصلاة ميزان عمل العبد المسلم إذا صلحت صلح سائر العمل وإذا فسدت فسد سائر العمل، ولا راحة للعبد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أمر الله عز وجل وأداء ما افترضه الله على عباده.

فالخاسر كل الخاسر من ضيع الصلاة، وكيف لا وفي المحافظة عليها سبب لدخول الجنة كما في الحديث عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ "(٣).

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي(٤/ ٢٩٣).

(٢) الكبائر للذهبي (ص: ٢٥).

(٣) أخرجه أبو داود(١٤٢٢)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٥٥٥٤).

وإذا أردت أن تقيس قوة الأمة وعزَّها فانظر في مساجدها، ولما كان الصحابة رضوان الله عليهم يمتثلون أوامر الله ويحافظون على الصلوات لا يضيعون أوقاتها كان لهم الغلبة والنصرة من الله عز وجل حتى إن الأرض مشارقها ومغاربها صارت في قبضتهم، وصارت لهم المهابة، فانظر حال الأمة اليوم وما آلت إليه إذا أردت أن تعرف سبب الخذلان والانهزام الذي وقعت فيه أمتنا في هذا الزمان فاسأل عن المساجد وفتش بداخلها كم فيها من المصلين وكم فيها من الخاشعين وكم وكم؟! !

فتمسكوا بهدي النبيﷺ وصحبه الكرام وأخلاقهم، تنالوا الفوز والرضوان من رب العالمين ولله در القائل:

من حاد عن خلق النبي وصحبه والتابعين الغر فهو ليس بسالم

obeikan.com

أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته

إن أجلّ المقاصد وأنفع العلوم: العلم بمعاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، فإن التعرّف على الله تعالى من خلال تعلم أسمائه وصفاته يورث العبد محبة الله وخشيته، ويوجب له تعظيمه وإجلاله. قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ». (١) **وفي رواية**: « لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ اللهَ وِتْرٌ، يُحِبُّ الْوِتْرَ ». (٢) والحفظ والإحصاء يكون بمعرفتها لفظاً ومعنى والقيام بحقها والدعاء بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: **في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو** قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها

المرتبة الثانية: فهم معانيها، ومدلولها

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) وهو مرتبتان:

أحدهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧)

(٢) البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧)

obeikan.com

بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم. (١)

ولنا مع هذا الموضوع المهم عدة محاور ووقفات:

-المحور الأول: خطورة الجهل بالله وأسمائه وصفاته

مع أهمية هذا الجانب وجلالة قدره، إلا أنك تلحظ غفلة عنه، وتقصيرا في معرفة وتعلم أسماء الله وصفاته، وإهمال التعبّد والدعاء بها، وضعف الالتفات إلى ما تقتضيه هذه الأسماء الحسنى من الآثار والثمرات؛ قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: الجهل بالله سُمٌّ مُهلك. (٢)

وَفِي الجهلِ قَبْلَ الموْتِ مَوْتٌ لأَهْلِه. . . وَأَجْسَامُهُمْ، قَبْلَ القُبُورِ، قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهم. . . وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

١-أجهل الناس من لم يعرف ربه

كل إنسان يستنكف أن ينسب إلى الجهل أو يقال له يا جاهل!. . . تخيل إنسانا لا يعرف أباه ولا يعرف صفاته ولا أسمائه، فما بالك بمن جهل ربه؟!

لو توصل الإنسان إلى أعلى درجات العلم الدنيوي ولم يتعرف على ربه فهو أجهل الناس

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: **لو عرف العبدُ كلَّ شيءٍ ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئا.** (٣)

٢-الجهل بالله سبب كل جريمة على وجه الأرض

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤)

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٦٦)

(٣) إغاثة اللهفان(١/ ٦٨)

إنَّ أغلظ الحجب عن الله هو الجهل به؛ فالمرء عدو ما يجهل، فمن لا يعرفون الله يكرهونه، من لا يعرفون الله يعبدون الشيطان من دونه

قَالَ بشر الحافي: لو فكّر النَّاس فِي عَظمَة الله مَا عصوه. (١)

- فما كفر مَن كفر إلا لجهله بالله
- وما ضل من ضل إلا لجهله بالله
- وما قصَّر من قصَّر، ولا أعرض من أعرض، ولا انتكس من انتكس إلا لجهله بالله
- وما عصى من عصى، ولا تجرأ متجرأ، ولا حارب الله من حاربه إلا لجهله بالله،

قال تعالى: { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج: ٧٤]

٣- الجهل بالله أظهر دليل على موت القلب وفساده

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: القلب الميت الذى لا حياة به، هو قلب مَن لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه. (٢)

المحور الثاني: أهمية العلم بأسماء الله وصفاته

١- العلم بأسماء وصفاته أشرفُ العلوم وأفضلُها وأعلاها مكانةً وأجلُّها شأناً، وشرف العلم وفضلُه من شرف معلومه، ولا أشرف وأفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، ولهذا فإنَّ الاشتغال بفهمه والعلم به والبحث عنه اشتغال بأشرف المطالب وأجلِّ المقاصد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: العلم بِاللَّه وأسمائه وَصِفَاته هُوَ أشرف الْعُلُوم على الإطلاق وَهُوَ مَطْلُوب لنَفسِهِ ومُرَاد لذاته قَالَ الله تَعَالَى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠)

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٩)

الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢] فَهَذَا الْعلم هُوَ غَايَة الْخلق الْمطلُوبَة. (١)

وقال رحمه الله: **شرف الْعلم تَابع لشرف معلومه** لوثوق النَّفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الْحَاجة إِلَى مَعْرفَته وَعظم النَّفْع بهَا وَلَا ريب أَنَّ أجلَّ مَعْلُوم وأعظمه وأكبره هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ رب الْعَالمين. (٢)

٢- أول فرض على العباد توحيد الله ،ولا يتم إلا بالعلم بالله وأسمائه وصفاته

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ. . . مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ(٣)

يقول قوام السنة الأصفهاني رحمه الله: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَوَّلُ فَرْضٍ فَرَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ مَعْرِفَتُهُ فَإِذَا عَرَفَهُ النَّاسُ عَبَدُوهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاعْلَم أَنه لَا إِلَه إِلَّا الله}. فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْرِفُوا أَسْمَاءَ اللَّهِ وَتَفْسِيرَهَا فَيُعَظِّمُوا اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ.

قَالَ: وَلَوْ أَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَتَزَوَّجَ إِلَى رَجُلٍ أَوْ يُزَوِّجُهُ أَوْ يُعَامِلُهُ طَلَبَ أَنْ يَعْرِفَ اسْمَهُ وَكُنْيَتَهُ، وَاسْمَ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، وَسَأَلَ عَنْ صَغِيرِ أَمْرِهِ وكبيره، فَالله الَّذِي خلقنَا ورزقنا وَنحن نرجوا رَحْمَتَهُ وَنَخَافُ مِنْ سَخَطِهِ أَوْلَى أَنْ نَعْرِفَ أَسْمَاءَهُ وَنَعْرِفَ تَفْسِيرَهَا. (٤)

٣- العلم بأسماء الله وصفاته هو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان

يقول ابن القيم رحمه الله: لَا يَسْتَقِرُّ لِلْعَبْدِ قَدَمٌ فِي الْمَعْرِفَةِ - بَلْ وَلَا فِي الْإِيمَانِ - حَتَّى يُؤْمِنَ بِصِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَيَعْرِفَهَا مَعْرِفَةً تُخْرِجُهُ عَنْ حَدِّ الْجَهْلِ بِرَبِّهِ، فَالْإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ وَتَعَرُّفُهَا: هُوَ أَسَاسُ الْإِسْلَامِ، وَقَاعِدَةُ الْإِيمَانِ، وَثَمَرَةُ شَجَرَةِ الْإِحْسَانِ، فَمَنْ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٨)

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٦)

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ٢٩)

(٤) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٣٤)

جَحَدَ الصِّفَاتِ فَقَدْ هَدَمَ أَسَاسَ الْإِسْلاَمِ وَالْإِيمَانِ وَثَمَرَةَ شَجَرَةِ الْإِحْسَانِ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. (١)

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص. وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن. (٢)

٤- تمام العبادة وكمالها متوقف على معرفة الله

قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم. (٣)

٥- مدار القرآن على ذكر أسماء الله وصفاته وآثارها

القرآنُ كلّه يدعو الناسَ إلى النظر في صفات الله وأفعالِه وأسمائه؛ **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: القرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة. (٤)

٦- فاضل الله تعالى بين آيات القرآن وسوره لما احتوته من ذكر أسمائه وصفاته

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: الآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدرا من آيات المعاد، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمنة لذلك؛ كما في حديث أُبَيِّ بْنِ

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٢٤)

(٢) تفسير السعدي (ص: ٣٥)

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨١٣)

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣١٠)

كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ » قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ » قَالَ: قُلْتُ: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: « وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ». (١)

وأفضل سور القرآن سورة أم القرآن، كما في حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: قَالَ لِي رسول الله ﷺ: « لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ. . . . قَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ ». (٢)

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ من غير وجه أن: {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن. (٣)

وثبت في الصحيح أنه بشر الذي كان يقرأها ويقول: إني لأحبها لأنها صفة الرحمن: بأن الله يحبه(٤)؛ فبين أن الله يحب من يحب ذكر صفاته سبحانه وتعالى، وهذا باب واسع. (٥)

المحور الثالث: ثمرات معرفة الله تعالى والعلم بأسمائه وصفاته

١- أطيب ما في الدنيا

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ما طابت الدنيا إلا بمعرفة الله ومحبته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته. (٦)

---

(١) رواه مسلم (٨١٠)

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤)

(٣) روى ذلك البخاري (٦٦٤٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم(٨١١) و (٨١٢) من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) رواه البخاري (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣١٢)

(٦) مدارج السالكين(٣/ ٢٩٢)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره. (١)

٢- على قدر علم العبد بربه على قدر خشيته له

قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]

وهذا ما يسمى بهيبة الجلال، فإنها متعلقة بذات الله وصفاته، وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب، كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم، وهي أعلى من درجة خوف العامة. (٢)

وقال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف كان له أخوف. (٣)

قال ابن القيم رحمه الله: **كلما كان العبد بالله أعرف** كان له أشد خشية، وكلما كان به أجهل كان أشد غرورا به وأقل خشية. (٤)

وها هو رسول الله ﷺ؛ تقول عَائِشَة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: « إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا ». (٥)

٣- من كان لله أعرف كان له أشد وأكثر حبا

قال ابن القيم رحمه الله: **كل من عرف الله أحبه**، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئا من المحبوبات فقلبه مريض. (٦)

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٤٨)

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٢)

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣١٧)

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٥٦)

(٥) رواه البخاري (٢٠)

(٦) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٦٨)

obeikan.com

قال ابن القيم رحمه الله: من كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب وجد من الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبا لغيره، وكلما ازداد له حبا ازداد له عبودية وذلا، وخضوعا ورقا له، وحرية عن رق غيره. (١)

قال الشيخ السعدي رحمه الله: معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها. (٢)

٤- حظ العبد من السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة على قدر معرفته بربه وطاعته له

قال شيخ الإسلام: العبد نجاتُه وسعادته في أن يعرف ربّه، ويُحبّه، ويُثني عليه. (٣)

٥- من عرف الله رضي به ربا ومن رضي بالله ربا ذاق طعم الإيمان

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ». (٤)

قال ابن القيم رحمه الله: كلما كان العبد بالله أعرف كان به أرضى فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة لا يخرج عن ذلك البتة كما قال في الدعاء المشهور « اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك ». (٥)

٦- معرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته توجب للعبد دوام ذكره لربه

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٩٨)

(٢) تفسير السعدي (ص: ٣٥)

(٣) النبوات لابن تيمية (١/ ٤٠٧)

(٤) رواه مسلم (٣٤)

(٥) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٣)

قال ابن القيم رحمه الله: كلما كَانَ العَبْد بِالله أعرف كَانَ ذكره غير ذكر الغافلين اللاهين، وَفرق بَين من يذكر صِفَات محبوبه الَّذِي قد ملك حبه جَمِيع قلبه ويثني عَلَيْهِ وَبهَا ويمجده بهَا وَبَين من يذكرهَا لفظا لَا يدْرِي مَا مَعْنَاهُ لَا يُطَابق فِيهِ قلبه لِسَانه. (١)

٧- لا صلاح للقلوب إلا بمعرفة باريها

قال ابن رجب رحمه الله: لا صلاحَ للقلوبِ حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللَّهِ وعظمتُه ومحبّتهُ وخشيتُهُ ومهابتُه ورجاؤه والتوكلُ عليه، وتمتلئ مِنْ ذلك، وهذا هو حقيقةُ التوحيدِ، وهو معنى "لا إله إلا اللَّهُ "، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّى يكونَ إلهُها الذي تألهُه وتعرفُه وتحبه وتخشاه هو اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ. (٢)

قال ابن تيمية رحمه الله: صلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه، وفساده في ضد ذلك، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط. (٣)

٨- معرفة الله هي أعظم دوافع خشوع القلب وخضوعه لله

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: أصلُ الخشوع الحاصلُ في القلبِ، إنَّما هوَ من معرفةِ اللَّه، ومعرفةِ عظمتِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، فمن كانَ باللَّه أعرفَ كانَ له أخشعَ.

وتتفاوتُ القلوبُ في الخشوع بحَسبِ تفاوُتِ معرفَتِهَا لمن خشعت.

وبحسبِ تفاوتِ مشاهدةِ القلوبِ للصفاتِ المقتضيةِ للخشوع، فمِنْ خاشع لقوةِ مُطالعتهِ قُربَ اللَّهِ من عبدِهِ واطَلاعِهِ على سِرِّه وضميرِه المقتضي للاستحياءِ من اللَّهِ تعالى ومراقبتِهِ في الحركاتِ والسكناتِ، ومن خاشع لمطالعتِه لجلالِ اللَّه وعظمتِهِ وكبريائِهِ المقتضي لهيبتِهِ، ومن خاشعِ لمطالعتهِ لكمالِهِ وجمالِهِ المقتضِي للاستغراقِ في محبتِهِ

---

(١) جلاء الأفهام (ص: ٤٥٢)

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٥٤)

(٣) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٩٥)

والشوقِ إلى لقائِهِ ورويتِهِ، ومن خاشع لمُطالعتِهِ شدَّةَ بطشِه وانتقامِه وعقابِه المقتضِي للخوفِ منهُ. (١)

١٠- معرفة الله أعظم سبيل للاستقامة على طريق الله

قال ابن رجب رحمه الله: متى استقامَ القلب على معرفةِ اللهِ، وعلى خشيتِهِ، وإجلالِهِ. ومهابتِهِ، ومحبتِهِ، وإرادتِهِ، ورجائِهِ، ودعائِهِ، والتوكُّلِ عليه، والإعراضِ عما سِواه، استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعتِهِ. (٢)

١١- لذة النظر إلى الله سبحانه هي ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه، وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا؛ فأطيب ما في الدنيا معرفته وأطيب ما في الآخرة النظر إليه سبحانه. (٣)

قال ابن القيم رحمه الله: لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفة العباد بربهم ومحبتهم له، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة. فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم. (٤)

قال ابن الجوزي مبينا أن المحبة تتفاوت على قدر العلم والمعرفة: من لم يُشَاهد جمال يُوسُف لم يعلم مَا الَّذِي ألم قلب يَعْقُوب. (٥)

من لم يبت والحب حشو فؤاده. . . لم يدر كيف تفتت الأكباد

المحور الرابع: كيف نتعبد الله بأسمائه وصفاته؟

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١١)

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٢٦٤)

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٦٣)

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٣٣)

(٥) المدهش (ص: ٤١٣)

المقصود بالتعبد بأسماء الله تعالى وصفاته: تحقيق العلم بها ابتداءً، وفقه معاني أسمائه وصفاته، وأن يعمل بها، فيتصف بالصفات التي يحبها الله تعالى: كالعلم، والعدل، والصبر، والرحمة. . ونحو ذلك، وينتهي عن الصفات التي يكرهها له تعالى من عبيده مما ينافي عبوديتهم لله تعالى، كالصفات التي لا يصح للمخلوق أن يتصف بها كالكبر والعظمة والجبروت. . . فيجب على العبد إزاءها الإقرار بها والخضوع لها. (١)

قال ابن بطّال رحمه الله: طريق العمل بها (أي أسماء الله): أن الذي يسوغ الاقتداء به فيها كالرحيم والكريم: فإن الله يحب أن يرى حالاها على عبده، فليمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختص بالله تعالى كالجبار والعظيم: فيجب على العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد: نقف منه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد: نقف منه عند الخشية والرهبة. (٢)

ويقول ابن تيمية رحمه الله: إن من أسماء الله تعالى وصفاته ما يُحمد العبد على الاتصاف به كالعلم والرحمة والحكمة وغير ذلك، ومنها ما يذم العبد على الاتصاف به كالإلهية والتجبر والتكبر، وللعبد من الصفات التي يُحمد عليها ويؤمر بها ما يمنع اتصاف الربّ به كالعبودية والافتقار والحاجة والذل والسؤال ونحو ذلك. (٣)

وقال ابن القيم رحمه الله: لما كان سبحانه يحبّ أسماءه وصفاته: كان أحبّ الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، وأبغضهم إليه: من اتصف بالصفات التي يكرهها، فإنما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت؛ لأن اتصافه بها ظلم، إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه؛ لمنافاتها لصفات العبيد، وخروج من اتصف بها من ربقة

---

(١) مجلة البيان (٩٩/ ٨٦) مقال للدكتور: عبد العزيز آل عبد اللطيف (أسماء الله الحسنى الفقه والآثار)

(٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٢٦)

(٣) الصفدية (٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩)

العبودية، ومفارقته لمنصبه ومرتبته، وتعديه طوره وحدّه، وهذا خلاف صفة العلم والعدل والرحمة والإحسان والصبر والشكر، فإنها لا تنافي العبودية، بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته، إذ المتصف بها من العبيد لم يتعدّ طوره، ولم يخرج بها من دائرة العبودية. (١)

درجات ومراتب التعبد بأسماء الله وصفاته

التعبد بالأسماء والصفات الحسنى درجات ومراتب، وكلما زاد علم العبد بالله تعالى ارتفع في درجة التعبد، **وأكمَلُ الناس عبوديّةً المتعبِّد بجميع الأسماء والصفاتِ**

قال ابن القيم رحمه الله: أكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم، أو التعبد بأسماء التودد، والبر، واللطف، والإحسان عن أسماء العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}. والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها. وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته. (٢)

أعظم أنواع المعرفة: معرفة الله تعالى بجلاله وجماله وكماله

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ١٢٩)

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠)

قال ابن القيم رحمه الله: من أعز أَنْوَاع الْمعرفَة معرفَة الرب سُبْحَانَهُ بالجمال وَهِي معرفَة خَواص الْخلق وَكلهمْ عرفه بِصفة من صِفَاته وأتمهم معرفَة من عرفه بِكَمَالِهِ وجلاله وجماله سُبْحَانَهُ لَيْسَ كمثله شَيْء فِي سَائِر صِفَاته وَلَو فرضت الْخلق كلهم على أجملهم صُورَة وَكلهمْ على تِلْكَ الصُّورَة ونسبت جمَالهمْ الظَّاهِر وَالْبَاطِن إِلَى جمال الرب سُبْحَانَهُ لَكَانَ أقل من نِسْبَة سراج ضَعِيف إِلَى قرص الشَّمْس وَيَكْفِي فِي جماله أَنه لَو كشف الْحجاب عَن وَجهه لأحرقت سُبْحَاته مَا انْتهى إِلَيْهِ بَصَره من خلقه وَيَكْفِي فِي جماله أَن كل جمال ظَاهر وباطن فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة فَمن آثَار صَنعته فَمَا الظَّن بِمن صدر عَنهُ هَذَا الْجمال. (١)

المحور الخامس: ثمرات التعبد بأسماء الله وصفاته (٢)

- الظفر بمعية الله ومحبته

قال ابن القيم رحمه الله: وَمَنْ وَافَقَ اللَّهَ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ قَادَتْهُ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزِمَامِهِ، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحَمَاءَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ، قَوِيٌّ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، حَتَّى يُحِبَّ أَهْلَ الْحَيَاءِ، جَمِيلٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْجَمَالِ، وَتْرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوَتْرِ. (٣)

- حسن الخلق وسلامة السلوك

التعبد بأسماء الله تعالى وصفاته له آثاره الطيبة في حسن الخلق وسلامة السلوك، كما أن تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته لا ينفك عن مساوئ الأخلاق ورديء السلوك.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨١)

(٢) مجلة البيان (٩٩/ ٨٦) مقتبس من مقال للدكتور: عبد العزيز آل عبد اللطيف (أسماء الله الحسنى الفقه والآثار)

(٣) الداء والدواء (ص: ٦٧)

ومثال ذلك: أن القدرية النفاة لما كانوا ينفون علم الله تعالى المحيط بكل شيء، ويزعمون أن العبد يخلق فعله نفسه، فالخير هو الذي أوجده العبد وفَعَله على حدّ زعمهم، ودخوله الجنة عوض عمله، فأورثهم ذلك غروراً وعُجباً. **قال أبو سليمان الداراني** رحمه الله: كَيْفَ يَعْجَبُ عَاقِلٌ بِعَمَلِهِ وَإِنَّمَا يُعَدُّ الْعَمَلُ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ، إِنَّمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْكُرَ وَيَتَوَاضَعَ، وَإِنَّمَا يَعْجَبُ بِعَمَلِهِ الْقَدَرِيَّةُ. (١)

-السلامة من الآفات والأمراض

والتعبد بأسماء الله تعالى وصفاته سبب رئيس في السلامة من الآفات: كالحسد، والكبر، كما **قال ابن القيم** رحمه الله: لو عرف العبد ربّه بصفات الكمال ونعوت الجلال، لم يتكبر ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله؛ فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله؛ فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته. (٢)

-الرضا والتسليم لما قضاه الله شرعا وقدرا

والتعبد بأسماء الله تعالى وصفاته يثمر الموقف الصحيح تجاه ما قضاه الله شرعا وقدرا، فإن الإنسان ظلوم جهول، والله تعالى بكل شيء عليم، وهو سبحانه حَكَمٌ عدْل، ولا يظلم تعالى أحداً، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]

يقول ابن القيم رحمه الله: من صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم(٩/ ٢٦٣)

(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٨)

لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما كره أعظم منها فيما يحب. (١)

ويقول أيضاً:. . . فكل ما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة ونقص في نفسك وفي غيرك فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً } [الإسراء: ٥]. (٢)

يقول ابن القيم رحمه الله: وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله، وأسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده. . .

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تَعَتّباً على القدَر وملامة له. . . وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم. . . . . من ذلك؟. (٣)

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩١ - ٩٢)

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٢٥)

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٠٦)

obeikan.com

المعاني الإيمانية من قصة الغامدية

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللهِ ﷺوَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَلِيَّهَا، فَقَالَ: "أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا"، فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ ، فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ: **"لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى"**(١)

هذه قصة امرأة صادقة في إيمانها بربها، سجلت للأجيال موقفاً نادراً، يقف له التاريخ هيبة وإجلالاً وتعظيما؛. . . . بعيدا عن عالم البطولات، وعن سِجل التضحيات، لم نعرف هذه المرأة بطول قيامها بالليل ولا بكثرة صيامها بالنهار؛ ولكنها امرأة ضعيفة!. . عصفت بها لحظة من لحظات الضعف فوقعت في الفاحشة. . وسرعان ما ينكشف عنها غطاء الغفلة، وينتفض الإيمان في قلبها، فتأبى إلا أن تجود بنفسها، وتكون هي الفداء، لتسبق الأحياء، وتضع رحلها في جنة عرضها الأرض والسماء.

ها هي تقبل على رسول الله ﷺ بخطىً ثابتة، وفؤادٍ يرجف من خشية الله؛ رمَتْ بكل مقاييس البشر وموازينهم، تناست العار والفضيحة، لم تلتفت إلى نظر الناس، أو إلى كلام الناس أو ماذا يقول الناس؟. . أقبلت تطلب الموت، نعم تطلب الموت، فالموت يهون إن كان معه المغفرة والصفح، يهون إن كان بعده الرضا والقبول، يهون إن كان فيه إطفاء لحرقة الألم، ولوعة المعصية، وتأنيب الضمير. . . تقول بصوت يملأه

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٤).

الأسى والأسف (يَا نَبِيَّ اللهِ، أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ). . . فيُشيح النبي ﷺ عنها بوجهه، فتقبل عليه وتقول: يا رسول الله أصبتُ حدًا فطهرني. . فيقول الرؤوف الرحيم ﷺ: « وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ». (١). . . فتقول: يا نبيَّ الله تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ،؟ والله إني لحُبْلَى من الزنا؟! ، وبعد هذا التصريح باقتراف ذنب يستوجب حدا من حدود الله أمام رسول الله ﷺ وهو الحاكم الذي يقيمُ شرعَ الله بين العباد يقول لها: « ارجعي حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ ». . . . . فهل رجعت المرأةُ والفرح يملأ قلبها؟ والسرور يخالط نفسها؟ لأنها نجتْ من موت محقق؟ وردها رسول الله ﷺ؟ كلا، بل لم يزل همُّ الذنب يزداد في فؤادها، وسياطُ الخوف تسيطر على تفكيرها.

ويمرُّ الشهر ويتبعه الشهر، والآلام تلد الآلام، فتأتي بعد تسعة أشهر بوليدها تحملُه. . ها أنا ذا وضعته فطهرني يا رسول الله، فيقول الرؤوف الرحيم ﷺ: « اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ ».

وتعود بابنها الرضيع. . فلو رأيتها، ووليدُها بين يديها، والناس يرقبونها عَجَبًا وإكبارًا. . تُرضع وليدَها حولين كاملين. . كلما ألقمته ثديها، أو ضمَّتْه إلى صدرها زاد تعلقُها به وتعلقُه بها، وحبُّها له، كيف لا وهي أمُّه. . ولا تسلْ عن حنان الأم وعطفها.

وتمضي الستتان. . فتأتي بوليدها وفي يده خبزة يأكلها. . يا رسول الله قد فطمته فطهرني! !.

عجبًا لها ولحالها! أيُّ إيمانٍ تحمله؟. . وأي إصرار وعزم تتمثله؟. . قرابة الثلاث سنوات، والأيام تتعاقب، والشهور تتوالى، وفي كل لحظة لها مع الألم قصة، وفي عالم المواجع رواية. . ومع هذا فلا تزال ثابتةً على موقفها، خائفةً من ذنبها، منيبةً إلى ربها.

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه

ثم كان أمر الله وشرعه. . فيدفع النبيُّ ﷺ الصبيَّ إلى رجل من المسلمين، ويؤمر بها فترجم. . ورجم الزاني المحصن هو شرع الله، والله أحكم الحاكمين، ويجب على العاقل أن لا ينظر إلى هذه العقوبة الشديدة دون أن ينظر إلى خطورة جريمة الزنا. . الجريمة التي تعصف بالدين والعرض والنَّسْل والنَّفْس.

وإن من التناقض الذي يقع فيه دعاة ما يسمى بحقوق الإنسان؛ رأفتَهم بالجاني القاتل والسارق والزاني، ونسيانَهم قسوةَ الجريمة، وما يصيب المَجْنِيَّ عَلَيْه وأهلَه، وما يصيب الأسرة والمجتمع.

الرجم رَدْعٌ وزجْرٌ عن انتشار الزنا في المجتمع، ثم هو تطهيرٌ لِمَنْ أقيم عليه، فلا يحتاج بعده إلى تطهير في النار، ولعذاب الآخرة أشد ومن عذاب الدنيا.(١)

أمر النبي ﷺ برجم المرأة. . وبينما كانت ترجم، يطيش بعض دمها على خالد بن الوليد، فيسبها على مسمع من النبي ﷺ، فيقول ﷺ: « مَهْلاً يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ »، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ.

وفي رواية أخرى أن عمر رضي الله عنه قال: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ قال ﷺ: « لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى »؟! !

الدروس والوقفات

-الوقفة الأولى: مهما عظم الذنب لا ينبغي للعبد أن يقنط من رحمة الله فرحمة الله وسعت كل شيء

لقد أذنبت هذه المرأة حين وقعت في حبائل الشيطان، واستجابت له في لحظة ضعف، لكنها قامت من ذنبها بقلبٍ يملأه الإيمان، ونفسٍ تلهبها حرارة المعصية، فلم تقنط من رحمة الله، ولم تيأس من روح الله، فأبت إلا أن تنفض عنها غبار هذا الذنب

(١) مقتبس من خطبة للشيخ سامي محمود

العظيم فجاءت منيبة لربها مستسلمة لحكمه، وكلها ثقة بسعة رحمة الله وعفوه؛ وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن عندما تغلبه نفسه أو يستهويه الشيطان فيقع في معصية لله تعالى، عند ذلك يتذكر المؤمن سعة عفو الله ورحمته فيسارع إلى التوبة من هذا الذنب؛ واستمع إلى كلام ربنا حين وصف لنا حال المتقين الذين يرثون جنة عرضها السماوات والأرض قائلا {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: **١٣٥**]

وما قصة قاتل المائة نفس منك ببعيد. (١)

وتأمل كيف فتح ربنا تعالى باب الرجاء والتوبة أمام كل عاصٍ مهما بلغت معصيته ولو كانت معصيته الكفر أو الشرك حتى لا يكون لأحد حجة على الله، يقول الله تعالى: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ **(٥٣)** وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ } [الزمر: **٥٣، ٥٤**]

قال ابن كثير رحمه الله: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. (٢) **قال علي بن أبي طالب**: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية.

وقال عبد الله بن عمر: هذه أرجى آية في القرآن. (٣)

---

(١) رواه البخاري (**٣٤٧٠**) ومسلم (**٢٧٦٦**) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (**٧/ ١٠٦**)

(٣) تفسير القرطبي (**١٥/ ٢٦٩**)

Obeikan.com

وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١١٠]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ». (١)

قال النووي رحمه الله: معناه ما دمتَ تذنب ثم تتوب غفرت لك، ولو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه. (٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ». (٣)

قال الطيبي: ليس الحديث تسلية للمنهمكين في الذنوب، كما يتوهمه أهل الغِرَّة بالله، فإن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل بيان لعفو الله – تعالى – وتجاوزه عن المذنبين ليرغبوا في التوبة، والمعنى المراد من الحديث هو أن الله كما أحب أن يعطي المحسنين أحب أن يتجاوز عن المسيئين. (٤)

– الوقفة الثانية: الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨)

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٧٥) بتصرف

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩)

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي (٤/ ١٦١٥)

من المتقرر عند أهل السنة والجماعة، أن إيمان العبد يزيد بطاعته لربه وينقص ببعده عن الطاعة ووقوعه في المعاصي ويظهر هذا المعنى جليا في حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ». (١)

قال النووي رحمه الله: هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان. (٢)

لذلك ينبغي للعبد أن ينتبه لنفسه ويتحصن دائما بطاعة ربه حتى لا تغلبه نفسه أو يستفزه الشيطان على الوقوع في الفواحش التي تغضب الرحمن، وليسأل ربه أن يثبت قلبه دائما على الإيمان حتي يلقاه، فعن **عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ** رضي الله عنهما قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ ». (٣)

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ ». (٤)

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: « مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ، إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ، فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ ». (١)

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧)

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٤١)

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤)

(٤) رواه أحمد (٤/ ٤٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٦٦)

فاسأل ربك أن يملأ قلبك دائما بحب طاعته وأن يقيم جوارحك على العمل لدينه وأن يجنبك الخطأ والزلل

-الوقفة الثالثة: كمال علم الله وحكمته ورحمته بعباده في شرع الحدود

إن الشريعة الإسلامية جاءت بالعقائد والمبادئ والقيم والأخلاق والأحكام التي تنظم المجتمع المسلم في كافة شؤونه وجوانبه وتعاملاته، ثم جاءت بعد ذلك بالحدود والعقوبات كسياج يحمي ذلك المجتمع ويحافظ على مكتسباته في كافة الجوانب، وإن لم تطبق تلك الحدود فإن المكتسبات سوف تضيع وتتلاشى شيئًا فشيئًا، لذا احتاج الأمر إلى الحزم وعدم الرأفة وهو في هذا الموضع رحمة للجاني، ورحمة للمجتمع. (٢)

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها. (٣)

فليست الغاية من إقامة الحدود التشفي والانتقام، قال ابن تيمية رحمه الله: فينبغي أن يعرف أن إقامة الحدود رحمة من الله بعباده؛ فيكون الوالي شديدا في إقامة الحد؛ لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله. ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات؛ لإشفاء غيظه وإرادة العلو على الخلق؛ بمنزلة الوالد إذا أدب ولده؛ فإنه لو كف عن تأديب ولده – كما تشير به الأم رقة ورأفة – لفسد الولد وإنما يؤدبه رحمة به وإصلاحا لحاله. (٤)

وكما أن الحدود زواجر عن المعصية فكذلك هي أيضا كفارة للجاني، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٠) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٩٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٩١)

(٢) الاستضعاف وأحكامه في الفقه الإسلامي لزياد المشوخي (ص: ٢٥٨)

(٣) فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٦)

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٢٩)

الصَّامِتِ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: « تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ ». (١)

قال الشاطبي رحمه الله: إن المصلحة في الحدود ليست الازدجار فقط، بل ثَمَّ أمرٌ آخر وهو كونها كفارة؛ لأن الحدود كفارات لأهلها، وإن كانت زجرا أيضا عن إيقاع المفاسد. (٢)

- الوقفة الرابعة: حفظ الشريعة للمجتمع المسلم من انتشار الفاحشة

من رحمة الله تبارك وتعالى أن جعل بين عباده وبين الوقوع في هذه الجريمة المنكرة حواجز منيعة وسياجات قوية حفاظا على سلامة المجتمع من الضياع وكذلك رحمة بأفراده لئلا يقعوا تحت طائل العقوبة الشرعية وتظهر عظمة هذه الشريعة في الأوامر والنواهي التي تضمن لأي مجتمع تمسك بها وطبقها واقعا السلامة من كل سوء ونذكر من ذلك عدة أمور منها:

- التحذير الشديد والترهيب من الوقوع في هذه الجريمة

قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً} [الإسراء: ٣٢]

فتأمل كيف نهى الله تعالى عن قربانه لأن ذلك أبلغ من النهي عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه. (٣)

---

(١) رواه البخاري (١٨) ومسلم (١٧٠٩)

(٢) الموافقات (٢/ ٨٥)

(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٥٧)

وجاء في وصف عباد الرحمن {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]

ووصف الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم بقوله {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: ٥ - ٧] و[المعارج: ٢٩ - ٣١]

-التحذير من فتنة النساء

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ». (١)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ ». (٢)

-وأمر الله نساء المؤمنين بالقرار في بيوتهن وعدم الخروج إلا لحاجة

قال تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: ٣٣]

قال القرطبي رحمه الله: وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِلُزُومِ النِّسَاءِ بُيُوتَهُنَّ، وَالِانْكِفَافِ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ. (٣)

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢)

(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٩)

وقال ابن كثير رحمه الله: أَيِ: الْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلاَ تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ. وَمِنِ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلاَةُ فِي الْمَسْجِدِ بِشَرْطِهِ. (١)، كَمَا قال ﷺ: « لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ، وَلْيَخْرُجْنَ تَفِلاَتٍ ». (٢)

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: ومعنى تَفِلاَتٍ أَيْ غَيْرَ مُتَطَيِّبَاتٍ، وَيُقَالُ امْرَأَةٌ تَفِلَةٌ إِذَا كَانَتْ مُتَغَيِّرَةَ الرِّيحِ؛ وَيَلْحَقُ بِالطِّيبِ مَا فِي مَعْنَاهُ لِأَنَّ سَبَبَ الْمَنْعِ مِنْهُ مَا فِيهِ مِنْ تَحْرِيكِ دَاعِيَةِ الشَّهْوَةِ. (٣)

فلا تُمنع المرأة من الخروج للمسجد وإن الأفضل في حقها القرار في بيتها، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لاَ تَمْنَعُوا النِّسَاءَ أَنْ يَخْرُجْنَ إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ ». (٤)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « صَلاَةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاَتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي بَيْتِهَا ». (٥)

لذلك قال **سفيان الثوري** رحمه الله: ليس للمرأة خير من بيتها. (٦)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا ». (١) ومعنى (استشرفها الشيطان) أي زينها في نظر الرجال ليغويها ويغوي بها. (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٩)

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٣٨) وأبو داود (٥٦٥) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٤٢)

(٣) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٣٤٩)

(٤) رواه أحمد (٢/ ٧٦) وأبو داود (٥٦٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٤٢)

(٥) رواه أبو داود (٥٧٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ١٠٨)

(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢/ ٤٧١)

ويوضح لك هذا المعنى ما جاء في حديث **جَابِرٍ** رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: « إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ ». (٣)

-ومع ذلك إذا أرادت المرأة الخروج من بيتها لمصلحة ،فتخرج بالضوابط الشرعية وهي:

أ-أن لا تخرج سافرة متبرجة

والتبرّج: هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره. (٤)

فقال تَعَالَى: {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} [الأحزاب: **٣٣**]

واستمع إلى وصف العلماء لتبرج الجاهلية وقارن وبينه وبين تبرج المجتمعات المتحضرة

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ تَمْشِي بَيْنَ يَدَيِ الرِّجَالِ، فَذَلِكَ تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: قال: كانت لهنَّ مشية وتكَسُّر وتغنج، يعني بذلك: الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك. (٥)

ب-أن تلتزم الحجاب الشرعي

قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب: **٥٩**]

---

(١) رواه البزار (٢٠٦١) وابن خزيمة في التوحيد له (١/ ٤٢) وابن حبان (٥٥٩٩) وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/ ٣٠٣)

(٢) مرقاة المفاتيح للهروي (٥/ ٢٠٥٤)

(٣) رواه مسلم (١٤٠٣)

(٤) تفسير الطبري (١٩/ ٢١٨)

(٥) تفسير الطبري (٢٠/ ٢٦٠) وتفسير ابن كثير (٦/ ٤١٠)

obeikan.com

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينا واحدة.

وقال محمد بن سيرين: سألت عَبيدة السلماني عن قول الله تعالى: {يدنين عليهن من جلابيبهن}، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. (١)

ج- أن تجتنب الطيب عند خروجها من بيتها

عَنْ أبي موسى الأَشْعَرِي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ، فَمَرَّتْ بِقَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ ». (٢)

- وأمر الله تبارك وتعالى الرجال والنساء بغض أبصارهم

قال تعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} [النور: ٣٠، ٣١]

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعا(٣)، كما في حديث **جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي. (٤)

وكذلك الأمر في النساء فأنهن شقائق الرجال.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٤٨٢)

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤١٣) والنسائي (٨/ ١٥٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٢٥)

(٣) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٤١)

(٤) رواه مسلم (٢١٥٩)

وأمر بغض البصر خاصة لأنه الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله. (١)

-وحذر من الدخول على النساء الأجنبيات عند غياب محارمهن

قال تعالى في شأن الصحابة مع أزواج النبي ﷺ: { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } [الأحزاب: **٥٣**]

فهذا أمر تأديب من الله لأصحاب محمد ﷺ مع زوجات النبي ﷺ إذا كان لأحدهم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

{ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه. (٢)

فهذا شأن الصحابة مع أزواج النبي ﷺ وهم أطهر الأمة قلوبا فمن دونهم أولى بذلك الأدب؛ **عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ** رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: « الحَمْوُ المَوْتُ ». (٣)

قال الليث بن سعد: الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج بن العم ونحوه

ومعنى (الحمو الموت) أن الخوف منه أكثر من غيره والشر يتوقع منه والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي. (٤)

-ونهي عن الخلوة بالمرأة الأجنبية

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٢٣)

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٤٥٥) تفسير السعدي (ص: ٦٧٠) بتصرف

(٣) رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢)

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥٤)

عن عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ رضي الله عنه، أن رسول اللهِ ﷺ قَالَ: « لاَ يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا ». (١)

-ونهى الرجال عن مصافحة النساء الأجنبيات

عن مَعْقِل بْن يَسَارٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ ». (٢)

إذا تأملت كل هذه الأوامر والنواهي الشرعية التي هي بمثابة السياج الواقي للفرد والمجتمع من ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة وأمثالها، علمتَ بعد ذلك مدى سعة رحمة الله بعباده وعظيم فضله أن شرع لهم مثل هذه الأحكام الواقية من الوقوع في تلك المحرمات

- ثم لو نظرت وقارنت بين المجتمع الذي طُبقت فيه هذه الحدود وبين المجتمعات التي تدعو إلى الحرية الشخصية التي لا ضابط لها ولا رابط لرأيت البون الشاسع بين الفضيلة والرذيلة.

(١) رواه أحمد (١/ ١٨) وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧/ ٢٣)

(٢) رواه الطبراني (٤٨٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٠٠)

openkan.com

أنقذوا أنفسكم من النار

العاقل من الناس حقا مَن يعتبر بما حوله مِن ظواهر وآيات في الكون فيدفعه ذلك إلى عبادة ربه والانشغال بما خلق له؛. . . . ومن ذلك عندما يدخل فصل الصيف، وتمر أيامه وتشتد حرارة الشمس، تضيق الصدور وتنحبس الأنفاس ويكثر العرق؛ فعند ذلك يبحث الناس عن السبل والوسائل التي بها يتقون حرارة الشمس وشدة رطوبة الجو؛ فمن الناس مَن يزوِّد بيته بالأجهزة الكهربائية كالمرواح وغيرها، ومنهم من يذهب إلى الشواطئ ليطفئ حر الشمس بالماء، ومنهم مَن يُريح رأسه ويذهب إلى بلد من البلاد الباردة ليقضي فيها شهور الصيف. . . . . ولكن المسلم المتيقظ لآخرته يربط هذه الآيات الكونية بأمور الآخرة التي يؤمن بها ويصدق بها فيكون بذلك أكثر استعدادا لها وأشد إقبالا عليها، ونحن لو نظرنا إلى نصوص الشرع لرأينا ربطا عجيبا بين الآيات الكونية والأمور الغيبية التي ستكون في الدار الآخرة ومن ذلك:

-ربط الشرع بين الحرّ في الدنيا وبين حر جهنم لنتذكر ونحذر!

وتأمل هذه النصوص بعين بصيرتك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلاَةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ». (١) فتأمل الربط بين شدة الحر وفيح جهنم

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَطْفِئُوهَا بِالْمَاءِ ». (٢)

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الْحُمَّى حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». (١)

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦) ومسلم (٦١٥)

(٢) رواه البخاري (٥٧٢٣) ومسلم (٢٢٠٩)

عن عَمْرو بْن عَبَسَةَ السُّلَمِيّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ علمه أوقات الصلاة والأوقات التي يجتنب الصلاة فيها؛ وفيه: « ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ (يعنى عندما تكون الشمس في وسط السماء)، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ ». (٢)

فإذا شعر العبد بالحر في نحر الظهيرة فليتذكر ذنوبه وتقصيره في طاعة ربه فيسارع إلى التوبة كي لا يجتمع عليه حر الدنيا حر الآخرة

ولما ذكر الله تعالى النار التي نوقدها في الدنيا وننتفع بها في حياتنا، بيَّن لنا أنها تذكر وعبرة قبل أن يذكر منافعها، قال تعالى{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ } [الواقعة: ٧١ – ٧٣]

تذكرة يتذكر بها الإنسان قبل أن ينتفع بها فانتبه!

لذلك كَانَ الْأَحْنَف بْن قَيْسٍ رحمه الله يَجِيءُ الْمِصْبَاحَ فَيَضَعُ أُصْبُعَهُ فِيهِ ثُمَّ يَقُولُ: (حِسِّ) ثُمَّ يَقُولُ: يَا حُنَيْفُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يَوْمَ كَذَا؟ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يَوْمَ كَذَا؟. (٣)

فإذا اشتد الحر – أيها المسلم – وضاقت نفسك، فقبل أن تفكر في السبيل التي تتقي به حر الدنيا تذكر أولا كيف تتقي حر الأخرة وحر جهنم أعاذنا الله وإياك منهما بمنه وكرمه.

-أيهما أولى بالاتقاء حر الشمس في الدنيا أم حر جهنم؟

هذا رسول الله ﷺ، ينادي علينا جميعا: أنقذوا أنفسكم من النار، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٥٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٠٨)

(٢) رواه مسلم (٨٣٢)

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٥٨)

فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: « يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ». (١)

فيا إخوتاه: أنقذوا أنفسكم من النار

وربنا سبحانه وهو الرحيم بنا دعانا جميعا أن نقي أنفسنا وأهلينا من حر جهنم، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم: ٦]

قال القرطبي رحمه الله: والمقصود بالحجارة حجارة الكبريت، وخُصت بذلك لأنها تزيد على جميع الحجارة بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت. (٢)

النار عدوٌ لكم يا عباد الله فاهربوا منها، عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: احْتَرَقَ بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَحُدِّثَ بِشَأْنِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ ». (٣)

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ ». (٤) تخيل مخلوق يأكل بعضه بعضا من شده

---

(١) رواه مسلم (٢٠٤)

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٨٨٢)

(٣) رواه البخاري (٦٢٩٤) ومسلم (٢٠١٦)

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٠) ومسلم (٦١٧)

حنقه وغيظه على المتمردين والعصاة لربهم: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} [الملك: ٧، ٨]

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: إِذَا سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَسَمِعَتْ حَسِيسَ النَّارِ وَتَغَيُّظَهَا وَزَفِيرَهَا، وَشَهِيقَهَا، صَرَخَتِ الْجِبَالُ كَمَا تَصْرُخُ النِّسَاءُ ثُمَّ تَرْجِعُ أَوَائِلُهَا عَلَى أَوَاخِرِهَا يَدُقُّ بَعْضُهَا بَعْضًا. (١)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ ». (٢)

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا ». (٣)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ » قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: « فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا ». (٤)

قال كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده، لو كنت بالمشرق والنار بالمغرب، ثم كشف عنها لخرج دماغك من منخريك من شدة حرها. (٥)

النار يا عباد الله: حرها شديد، وقعرها بعيد، وشرابها الصديد، ومقامعها الحديد.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٣)

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨)

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٢)

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)

(٥) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٨٦١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ » قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا ». (١)

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ، لَأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَهُمْ، فَكَيْفَ مَنْ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُّومُ ». (٢)

واستمع إلى حال أهون أهل النار عذابا في النار، **عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ** رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ». **وفي رواية** « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا ». (٣)

يا مَن تُتلى عليه أوصاف جهنم، ويشاهد تنفسها كل عام حتى يحس به ويتألم، وهو مصرٌ على ما يقتضي دخولها مع أنه يعلم! ستعلم إذا جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مَن يندم، ألك صبر على سعيرها وزمهريرها؟ قلْ وتكلمْ، ما كان صلاحك يرجى والله أعلم. (٤)

والآن: حان الوقت أن نبحث سويا عن السبل التي نتقي بها هوان وعذاب النار

المنجيات من النار

- الإخلاص وصدق التوحيد

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٤)

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٣٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٣١)

(٣) رواه البخاري (٦٥٦١) مسلم (٢١٣)

(٤) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٣٣٣)

عن عِتبَان بْن مَالِكٍ الأَنْصارِيّ رضي الله عنه، عن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ)). (١)

عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: ((مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ)). (٢)

ففي الحديثين بشارة لأهل التوحيد بدخول الجنة، وعدم الخلود في النار لأن من قال لا إله الله مخلصا فيها، يبتغي بها وجه الله؛ فإنه سيقوم بمقتضاها، ويعمل بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة، من أداء الواجب، وترك المحرم، والإنسان إذا أدى الواجب وترك المحرم؛ أحل الحلال، وحرم الحرام، وقام بالفرائض، واجتنب النواهي، فإن هذا من أهل الجنة، يدخل الجنة ويحرم الله عليه النار. (٣)

صدق الإيمان ومحبة الله

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ حُرِّمَ عَلَى النَّارِ، وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَيْهِ: إِيمَانٌ بِاللهِ، وَحُبُّ اللهِ، وَأَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ فَيُحْرَقَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ)). (٤)

البراءة من الشرك

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ)). (٥)

المحافظة على صلاتي الفجر والعصر

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٣)

(٢) رواه البخاري (١٢٨)

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٣/ ٣١١)

(٤) رواه أحمد (٣/ ١١٣) وهو حديث حسن

(٥) رواه النسائي (١٠٩٠٢)

obeikan.com

عن عُمَارَةَ بْنِ رُؤَيْبَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)). - يَعْنِي الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ -. (١)

المحافظة على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها

عن أُمِّ حَبِيبَةَ رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ)). (٢)

المحافظة على تكبيرة الإحرام

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ صَلَّى لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ)). (٣)

الصيام في سبيل الله

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا بَاعَدَ اللهُ، بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا)). (٤)

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)). (٥)

تخليص الصيام مما يشوبه

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّمَا الصِّيَامُ جُنَّةٌ، يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ، هُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ)). (٦)

---

(١) رواه مسلم (٦٣٤)

(٢) رواه الترمذي (٤٢٨) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٦٧)

(٣) رواه الترمذي (٢٤١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٨٩)

(٤) رواه مسلم (١١٥٣)

(٥) رواه الترمذي (١٦٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٨٥)

(٦) رواه أحمد (٣/ ٣٩٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٩٤)

openkan.com

حسن الخلق

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ((مَنْ كَانَ هَيِّنًا لَيِّنًا قَرِيبًا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ)). (١)

البكاء من خشية الله

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ)). (٢)

إحسان تربية البنات أو الأخوات

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قال النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ)). (٣)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لاَ يَكُونُ لأَحَدٍ ثَلاَثُ بَنَاتٍ، أَوْ ثَلاَثُ أَخَوَاتٍ، أَوْ ابْنَتَانِ، أَوْ أُخْتَانِ، فَيَتَّقِي اللَّهَ فِيهِنَّ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ)). (٤)

الذب عن عرض أخيه المسلم

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامَةِ)). (٥)

كثرة الدعاء بالنجاة من النار

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢١٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٤٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٥)

(٢) رواه الترمذي (١٦٣٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٨٤)

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٥)

(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٢) وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٥٨)

(٥) رواه الترمذي (١٩٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٧٤)

obeikan.com

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الجَنَّةَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الجَنَّةُ: اللَّهُمَّ أَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ)). (١)

الصدقة ولو بالقليل

عن عَدِيّ بْن حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ)). (٢)

الباقيات الصالحات وهن المنجيات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((خُذُوا جُنَّتَكُمْ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: ((لَا، وَلَكِنْ جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)). (٣)

الأذان لصلاة الفجر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الْأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ فَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((عَلَى الْفِطْرَةِ)) ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ)). فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى. (٤)

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٨٤)

(٢) رواه البخاري (١٤١٧) ومسلم (١٠١٦)

(٣) رواه النسائي (١٠٦١٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦١٢)

(٤) رواه مسلم (٣٨٢)

القواعد المهمة في تربية أبناء الأمة

أبناؤنا هم أعظم المشاريع الاستثمارية التربية مسؤولية التعليم أساس في التربية
النموذج التربوي في التربية من خلال السنة أمور مرفوضة في التربية

إن تربية الأبناء فن من أخطر الفنون وأعظمها، وما انحرف الكثير من أبناء المسلمين وانجرفوا أمام تيارات الانحراف إلا بعد أن استقال الآباء والأمهات من مهمة التربية والإلمام بقواعدها، واستعاض البعض بتربية الأجساد عن تربية العقول والقلوب، فتركوا أبناءهم يواجهون الناس والمجتمعات غثها وسمينها وهم غير محصنين بأصول التربية الإسلامية وليس لديهم من المناعة ما يواجهون به تيارات الانحراف ودواعي الفساد.

ولأهمية موضوع التربية فإننا نطرق هذا الموضوع، ونهمس في آذان الآباء والأمهات ومن هم على مشارف هذه المرحلة ببعض القواعد التي تساعدهم على هذه المهمة الجليلة والوظيفة النبيلة على سبيل النصيحة التي هي أصل عظيم من أصول هذا الدين.

ونسأل الله توفيقًا فيما أردناه وقبولًا لما ابتغيناه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

القاعدة الأولى: أبناؤنا هم أعظم المشاريع الاستثمارية

هل تعلم أن درجتك ترفع في الجنة بسبب تربيتك لابنك،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)). [1]

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

وربما انشغل بعض الآباء عن تربية أبنائهم بجمع الأموال والثروات ليأمن مستقبل أولاده ثم في النهاية ينظر بعد ما أفنى عمره في جمع المال فلا يجد أحداً من هؤلاء الأبناء يستحق أن يرث عنه هذا المال لسوء أخلاقهم وفساد سلوكهم، وما ذلك إلا ثمرة إهماله هو في تربيتهم.

القاعدة الثانية: التربية مسؤولية

من أهم عوامل نجاح العملية التربوية، وتعتبر الخطوة الأولى على طريق التربية الصحيحة الناجحة – إن شاء الله – استشعار المسؤولية الثقيلة التي أُلقيت على عاتق الوالدين والمربين

ذكر الراغب الأصفهاني أن المنصور بعث إلى مَنْ في الحبس من بني أميَّة يقول لهم: ما أشدُّ ما مَرَّ بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: ما فقدْنا من تربية أولادنا. (١)

وإليك بعض النصوص التي تدل على ذلك، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)). (٢)

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ)). (٣)

---

(١). تربية الأولاد في الإسلام" لعبد الله ناصح علوان (١/ ١٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩).

(٣) رواه النسائي (٩١٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٦٥)

قال العلماء: الراعي هُوَ الْحَافِظ المؤتمن الْمُلْتَزم صَلاَح مَا قَامَ عَلَيْهِ وَمَا هُوَ تَحت نظره، فَكل من كَانَ تَحت نظره شَيْء فَهُوَ مَطْلُوب بِالْعَدْلِ فِيهِ وَالْقِيَام بمصالحه فِي دينه ودنياه ومتعلقاته، فَإِن وفى مَا عَلَيْهِ من الرِّعَايَة حصل لَهُ الْحَظ الأوفر وَالْجَزَاء الْأَكْبَر، وَإِن كَانَ غير ذَلِك طَالبه كل أحد من رَعيته بِحقِّهِ. (١)

وفي حديث عبد اللهِ بن عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قَالَ: كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ،. . . . وفيه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ له ((فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))(٢)، وزاد مسلم **((وَإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))**. (٣)

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا }[التَّحْرِيمِ: ٦].

قال عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،: عَلِّمُوهُمْ، وَأَدِّبُوهُمْ.

وقال ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ، ومُروا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ، يُنْجِيكُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِرَجُلٍ: يَا هَذَا أَحْسِنْ أَدَبَ ابْنِكَ فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عن أَدَبِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ بِرِّكَ وطاعته لك. (٤)

سأل رجل الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- السؤال التالي: إن لدي أربعة أطفال وأريد أن أكتفي بهم وأتفرغ للعبادة والطاعة فما رأيكم؟

فأجاب رحمه الله: تربيتك لأبنائك التربية الصالحة عبادة. (٥)

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ١٩٠).

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (١١٥٩).

(٤) النفقة على العيال لابن أبي الدنيا (١/ ٥٠٢).

(٥) موسوعة الكتيبات الإسلامية لمحات في تربية البنات (٧١/ ٦).

obeikan.com

وعيد من أهمل تربية أبنائه وضيَّع رعيته

عن مَعْقِل بْن يَسَارٍ الْمُزَنِيّ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)). (١)

وفي رواية: ((فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ)). (٢)

وعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ)). (٣)

وإذا فسد الراعي أو تخلى عن رعيته وأهملها فسدت الرعية:

قال أبو مسلم الخراساني:

وَمَنْ رَعَى غَنَمًا فِي أَرْضِ مَسْبَعَةٍ وَنَامَ عَنهَا تَوَلَّى رَعْيَهَا الأسدُ (٤)

قال ابن القيم رحمه الله: من أهمل تَعْلِيم وَلَده مَا يَنْفَعهُ وَتَركه سدى فقد أَسَاءَ إِلَيْهِ غَايَة الْإِسَاءَة وَأكْثر الْأَوْلَاد إِنَّمَا جَاءَ فسادهم من قبل الْآبَاء وإهمالهم لَهُم وَترك تعليمهم فَرَائض الدّين وسننه فأضاعوهم صغَارًا فَلم ينتفعوا بِأَنْفسِهِم وَلم ينفعوا آبَاءَهُم كبارًا، كَمَا عَاتب بَعضهم وَلَده على العقوق فَقَالَ: يَا أَبَت إِنَّك عققتني صَغِيرا فعققتك كَبِيرا وأضعتني وليدا فأضعتك شَيخا. (٥)

القاعدة الثالثة: التعليم أساس في التربية

قال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

---

(١) رواه مسلم (١٤٢).

(٢) رواه البخاري (٧١٥٠).

(٣) رواه النسائي (٩١٣١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٢٧) وأصله في مسلم (٩٩٦).

(٤) الشكوى والعتاب للثعالبي (ص: ٢٣٢).

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود (ص: ٢٢٩).

آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤]

قال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]

إن هذه الرؤية التربوية هي التي أنشأت جيلاً حمل راية الإسلام بقوة وعلم؛ لأنهم ربُّوا وَفْق تخطيط مُسبَق، لا حسب عشوائية لا تعرف إلا الصُّدف.

أ- تعليم العقيدة:

{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: ((يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)). [١]

تعليم الواجبات

عن سَبْرَة بْن مَعْبَدٍ الجُهَنِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلاَةَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرٍ)). [٢]

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٥٩).

(٢) رواه الترمذي (٤٠٧) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ٤٠٧).

obeikan.com

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَضَّأَ وُضُوءًا خَفِيفًا ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ، فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَحَوَّلَنِي، فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ اضْطَجَعَ. (١)

ب- الأولاد وتعليم القرآن:

يقول ابن خلدون: اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه غيره من العلوم. (٢)

جـ- تعويد البنات على الحجاب

قال الشيخ محمد على الصابوني: يطلب من المسلم أن يعوّد بناته منذ سنّ العاشرة على ارتداء الحجاب الشرعي حتى لا يصعب عليهن بعدُ ارتداؤه، وإن لم يكن الأمر على وجه (التكليف) وإنما هو على وجه (التأديب) قياساً على أمر الصلاة (مُروا أولادكم بالصلاة وهم أنباء سبع). (٣)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي ثُمَّ قَالَ: ((اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ)). (٤)

د- تعليم الأخلاق والسلوك:

---

(١) رواه البخاري (٨٥٩) ومسلم (٧٦٣).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٤٠).

(٣) روائع البيان تفسير آيات الأحكام (٢/ ٣٨١).

(٤) رواه أحمد (١/ ٢٦٦) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ١٧٣).

obeikan.com

عن عُمَرَ بْن أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنهما، قال: كُنْتُ غُلاَمًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَا غُلاَمُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)). فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ. (١)

عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِلحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما: مَا تَذْكُرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: أَذْكُرُ أَنِّي أَخَذْتُ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَأَلْقَيْتُهَا فِي فَمِي، فَانْتَزَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلُعَابِهَا، فَأَلْقَاهَا فِي التَّمْرِ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مَا عَلَيْكَ لَوْ أَكَلَ هَذِهِ التَّمْرَةَ؟ قَالَ: ((إِنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ)). قَالَ: وَكَانَ يَقُولُ: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ)). (٢)

النموذج التربوي في التربية من خلال السنة:

إن تقدير الأولاد واحترامهم من أهم الأمور التي يحتاج إليها الطفل دائماً، ويغفل عنها الآباء غالباً، فقد كان النبي ﷺ يُشعر الناشئة بمكانتهم وتقدير ذاتهم، ولهذا التقدير مظاهر عدة في سنته ﷺ، من ذلك:

١- المدح والثناء دون تفريط ولا إفراط:

- **عَنْ أَبِي بَكْرَةَ** رضي الله عنه، أَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الحَسَنَ، فَصَعِدَ بِهِ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: ((ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ)). (٣)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ)). (٤)

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٦) ومسلم (٢٠٢٢).

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٠٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٧).

(٣) رواه البخاري (٣٦٢٩).

(٤) رواه الترمذي (٣٧٦٨) في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤٢٣).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((يَا بُنَيَّ)). [١]

فما أحوجنا جميعاً إلى احترام عقول الأطفال، وعدم تسفيهها، وتقدير ذاتهم واحترام مشاعرهم، وهذا يجعل الطفل ينمو نمواً عقلياً واجتماعياً سليماً إن شاء الله.

٢- التغافل عن الأخطاء:

فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ بِيَدِي فَانْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَنَسًا غُلاَمٌ كَيِّسٌ فَلْيَخْدُمْكَ، قَالَ: فَخَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ: لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا؟. [٢]

٣- إشباع الرغبات ما دامت في حيز المباح:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلاَتِي الْعَشِيِّ الظُّهْرِ أَوِ الْعَصْرِ وَهُوَ حَامِلٌ أَحَدِ ابْنَيْهِ الْحَسَنِ أَوِ الْحُسَيْنِ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَهُ عِنْدَ قَدَمِهِ الْيُمْنَى، فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَجْدَةً أَطَالَهَا، قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ، وَإِذَا الْغُلاَمُ رَاكِبٌ عَلَى ظَهْرِهِ فَعُدْتُ فَسَجَدْتُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ سَجَدْتَ فِي صَلاَتِكَ هَذِهِ سَجْدَةً مَا كُنْتَ تَسْجُدُهَا أَفَشَيْءٌ أُمِرْتَ بِهِ؟ أَوْ كَانَ يُوحَى إِلَيْكَ؟ قَالَ: ((كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنِ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ)). [٣] **٤- إلقاء السلام على الصغار**

---

(١) رواه مسلم (٢١٥١).

(٢) رواه مسلم (٢٣٠٩).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٤٩٣) و النسائي (٢/ ٢٢٩) والحاكم في المستدرك (٣/ ١٨١) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣/ ٢٨٥).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى غِلْمَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ. (١)

وعَنْ سَيَّار بن أبي سيار العنزي، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ ثَابِتٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ أَنَسٍ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ أَنَسٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ. (٢)

عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَى الصِّبْيَانِ. (٣)

عن بِشْر بْن حَرْبٍ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ إِلَى السُّوقِ فَجَعَلَ لَا يَمُرُّ بِصَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمُ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ. (٤)

٥- تعويد الأولاد على تحمل المسؤولية:

فالمربي الواعي يساعد الناشئ على تنمية مفهوم إيجابي عن نفسه، يعينه مستقبلاً على تحمل المسؤولية. فقد اهتم الرسول ﷺ في بناء شخصية الناشئين من حوله، **فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلاَمٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلاَمِ: ((أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاَءِ؟)) فَقَالَ الغُلاَمُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا، قَالَ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ. (٥)

وهكذا يعتاد الطفل على الجرأة الأدبية، فينشأ وفيه قوة رأي ورجاحة عقل، بعيداً عن روح الانهزامية والسلبية، وهذا يتنافى مع الحياء الذي فرضه الإسلام.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٧) ومسلم (٢١٦٨).

(٢) رواه مسلم (٢١٦٨).

(٣) النفقة على العيال لابن أبي الدنيا (١/ ٤٥٦).

(٤) النفقة على العيال لابن أبي الدنيا (١/ ٤٥٧).

(٥) رواه البخاري (٢٣٦٦) ومسلم (٢٠٣٠).

obeikan.com

وهذا أَنَس بن مالك رضي الله عنه يقول: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: ((يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟)) قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللهِ. (١)

٦- بث الثقة في نفوسهم:

ويكون ذلك من خلال:

أ) طرح سؤال على مسامعهم:

عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ، فَقَالَ: ((إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً، مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ))، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، وَأَنَا غُلاَمٌ شَابٌّ فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالَ ﷺ: ((هِيَ النَّخْلَةُ)). فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ: لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا. (٢)

ب) التكليف بأمر مهم:

عن زَيْد بن ثابت رضي الله عنه قال: ذهبَ بِي قومي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا غُلاَمٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ: يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ. (٣)

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٠).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٢) ومسلم (٢٨١١).

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٨٦) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٣٢٠).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا بِالْمَدِينَةِ فِي مَجْلِسِ الْأَنْصَارِ، فَأَتَانَا أَبُو مُوسَى فَزِعًا أَوْ مَذْعُورًا قُلْنَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: إِنَّ عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَنْ آتِيَهُ، فَأَتَيْتُ بَابَهُ فَسَلَّمْتُ ثَلاَثًا فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ فَرَجَعْتُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنَا؟ فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُكَ، فَسَلَّمْتُ عَلَى بَابِكَ ثَلاَثًا، فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيَّ، فَرَجَعْتُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ((إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، فَلْيَرْجِعْ)) فَقَالَ عُمَرُ: أَقِمْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةَ، وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ. فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لاَ يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَكُنْتُ أَصْغَرَ القَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: خَفِيَ عَلَيَّ هَذَا مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ. (١)

ج) إشعارهم بالعدل في معاملة الآباء لهم:

وذلك من أهم عوامل الاستقرار النفسي، فلا يلهب الآباء الغيرة بين الأبناء، ولا يثيرون التنافس فيما بينهم بتفضيل بعضهم على بعض، وقد تكون من وجهة نظر الآباء يسيرة وبسيطة كالقبلة أو الابتسامة أو الاهتمام الزائد بتلبية حاجة واحد على الآخر، وتلبية رغباته في المأكل أو المشرب أو الملبس.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، قَالَ: انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: ((أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟)) قَالَ: لَا، قَالَ: ((فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي))، ثُمَّ قَالَ: ((أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟)) قَالَ: بَلَى، قَالَ: ((فَلاَ إِذًا)). (٢)

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٥) ومسلم (٢١٥٣)

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٠) ومسلم (١٦٢٣) واللفظ له.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ جَالِسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَهُ ابْنٌ لَهُ، فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ، وَجَاءَتِ ابْنَتٌ لَهُ، فَأَخَذَهَا، فَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((هَلاَّ عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا)). (١)

أمور مرفوضة في التربية:

من أبرز الوسائل السلبية في التربية الضرب، والسباب، واللوم.

وكل منها وسيلة سهلة الاستخدام، سيئة الأثر، مهما أعطت من أثر سريع، يظهر أنه إيجابي، ما عدا الضرب غير المبرح، بشروط كثيرة، تكاد تجعله ممنوعا، وليس هذه البحث في شأنه. (٢)

فأما في الضرب فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. (٣)

ضوابط الضرب

١- لا تستعمل الضرب في تأديب ولدك إلا حين تخفق الموعظة والتأنيب

٢- وليكن ضربك له ضرب تربية لا ضرب انتقام

٣- وتجنَّب ضربه وأنت شديد الغضب منه، واحذر موطن الأذى من جسمه

٤- وأشعره وأنت تضربه أنك لا تزال تحبُّه

٥- وقلل ما استطعت من استعمال الضرب وسيلة للتأديب

---

(١) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٨٩) وابن الأعرابي في معجمه (٣/ ٨٨٥) وتمام في فوائده (٢/ ٢٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٣٨٣) وحسنه الألباني في الصحيحة (٧/ ٢٦٣).

(٢) مهارات التواصل مع الأولاد (ص: ١٨).

(٣) رواه مسلم (٢٣٢٨).

٦- ولأن يهابك ويحبك خير من أن يخافك ويكرهك.[١]

وأما في السباب، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الفَاحِشِ وَلَا البَذِيءِ)).[٢]

وأما في اللوم فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "خدمت النبي ﷺ عشر سنين بالمدينة، وأنا غلام، ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن أكون عليه؛ ما قال لي فيها: أفٍّ قط وما قال لي: لم فعلت هذا؟ أو ألا فعلت هذا! ".[٣]

---

(١) هكذا علمتني الحياة (ص: ١٢٦).

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٤٩).

(٣) أخرجه أبو داوود بهذا اللفظ. وأصله في البخاري(٦٠٣٨)، ومسلم(٦٠٨٢)، من طريق أخرى.

obeikan.com

العُجب: حقيقته ومظاهره وأسبابه وعلاجه

إن العُجب من الآفات الخطيرة التي تصيب كثيراً من الناس، فتصرفهم عن شكر الخالق إلى شكر أنفسهم، وعن الثناء على الله بما يستحق إلى الثناء على أنفسهم بما لا يستحقون، وعن التواضع للخالق والانكسار بين يديه إلى التكبر والغرور والإدلال بالأعمال، وعن احترام الناس ومعرفة منازلهم إلى احتقارهم وجحد حقوقهم.

هذه الآفة من أخطر الآفات على النفس لأنها تريك ما ليس بالحسن حسناً وتقعدك وتثبطك عن العمل وعن محاسبة النفس، فما هو العجب وما هي أسبابه وما هي نتائجه؛ ثم كيف الخلاص من هذا الداء الخطير؟

تعريف العجب وحقيقته

قال في تاج العروس: العجب بالضم: الزهو والكبر. ورجل معجب: مزهو بما يكون منه حسنا أو قبيحا. (١)

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله إعجاب الرجل بنفسه هو: ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منّة الله تعالى؛ فإن رفعها على الغير واحتقره فهو الكبر المذموم. (٢)

وعرفه بعضهم بأنه: الإحساس بالتميّز، والافتخار بالنفس، والفرح بأحوالها، وبما يصدر عنها من أقوال وأفعال، محمودة أو مذمومة.

قال بشر بن الحارث رحمه الله: العجب أن تستكثر، عملك وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك. (١)

---

(١) تاج العروس لمرتضي الزبيدي (٣/ ٣١٨)

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب لزين الدين العراقي (٨/ ١٦٨)

وسُئل عبد الله بن المبارك رحمه الله عن مفهوم العُجْب؟ فقال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك!. [٢] فهذا هو جوهر العُجب: أن ترى أن عندك شيئًا ذاتيًا تتملكه، وليس عند غيرك.

أن ترى أن عندك مالًا. . أولادًا. . ذكاءً. . موهبة. . كساءً ليس عند غيرك. [٣]

ومن معاني العُجب كذلك: رؤية العبد لنفسه بعين الرضا والفرح فيما علمت أو عملت وحمدها على ذلك، ولو في جزئية صغيرة، ونسيان أن الله عز وجل هو صاحب كل فضل نحن فيه.

قال المحاسبي: العُجب هو حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونسيان أن النعم من الله عز وجل. [٤] **ويؤكد على هذا المعنى أبو حامد الغزالي** فيقول: العُجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنعم. [٥]

قال ابن القيم رحمه الله: وَلْيَحْذَرْ العبد كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ طُغْيَانِ " أَنَا "، " وَلِي "، " وَعِنْدِي "، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الثَّلَاثَةَ ابْتُلِيَ بِهَا إِبْلِيسُ وفرعون، وقارون، (فَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) لِإِبْلِيسَ، وَ {لِي مُلْكُ مِصْرَ} لفرعون، وَ {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} لقارون. وَأَحْسَنُ مَا وُضِعَتْ " أَنَا " فِي قَوْلِ الْعَبْدِ: أَنَا الْعَبْدُ الْمُذْنِبُ، الْمُخْطِئُ، الْمُسْتَغْفِرُ، الْمُعْتَرِفُ وَنَحْوِهِ. "

---

(١) حلية الأولياء (٨/٣٤٨)

(٢) شعب الإيمان (٧/ ٥٠)، تذكرة الحفاظ (١/٢٧٨)

(٣) حطم صنمك وكن عند نفسك صغيرا لمجدي الهلالي (ص: ١٨)

(٤) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص ٤٢٠

(٥) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧١)

وَلِي "، فِي قَوْلِهِ: لِيَ الذَّنْبُ، وَلِيَ الْجُرْمُ، وَلِيَ الْمَسْكَنَةُ، وَلِيَ الْفَقْرُ وَالذُّلُّ: " وَعِنْدِي " فِي قَوْلِهِ: " اغْفِرْ لِي جِدِّي، وَهَزْلِي، وَخَطَئِي، وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي ". (١)

الفرق بين العجب والكبر

فسر العجب بالكبر كثير من العلماء. والتحقيق أن بينهما فرقا دقيقا ذكره المحققون، منهم الإمام الحافظ ابن الجوزي في تبصرته فقال: أعلم أن الكبر خلق باطن يصدر عنه أعمال، وذلك الخلق هو رؤية النفس فوق المتكبر عليه، ويفارقه العجب من جهة أن الكبر لا يتصور إلا أن يكون هناك من يتكبر عليه، والعجب يتصور، ولو لم يكن أحد غير المعجب. (٢)

خطورة العجب

فقد أمر الله عز وجل نبيه بالإنذار والدعوة، وتعظيم ربه عز وجل وفعل الخير، واجتناب الشر، وهجر الأوثان، ثم قال له بعد ذلك: { وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ } [المدثر: ٦]

قال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. (٣) فإنه مهما كُثرَ العمل ففضل الله أعظم، وحقه أكبر. وقد نهى الله عن تزكية النفس، بمعنى اعتقاد خيريتها، والتمدّح بها فقال: { فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ } [النجم: ٣٢]

كما نهى عن المن بالصدقة فقال: { لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى } [البقرة: ٢٦٤]

والمن يحصل نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العُجب. والإعجاب بالنفس شر، وأي شر، **قال ابن المبارك**: لاَ أَعْلَمُ فِي المُصَلِّيْنَ شَيْئاً شَرّاً مِنَ العُجْبِ. (٤)

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٤٣٤)

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني (٢/ ٢٢٢)

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٠٠)

(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٨/ ٤٠٧)

ولعل المرء يدافع الرياء ويشعر به، لكن ربما لا يشعر بما في داخله من العجب المحبط للعمل

قال حاتم الأصم رحمه الله: لا أدري أيهما أشد على الناس اتقاء العجب أو الرياء! العجب داخل فيك والرياء يدخل عليك، العجب أشد عليك من الرياء ومثَلُهما أن يكون معك في البيت كلب عقور وكلب آخر خارج البيت فأيهما أشد عليك الذي معك أو الخارج؟ فالداخل العجب والخارج الرياء. (١)

من أجل ذلك كان العجب داء مهلكاً حقا كما وصفه النبي ﷺ، **كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ: هَوًى مُتَّبَعٌ وَشُحٌّ مُطَاعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ وَهِيَ أَشَدُّهُنَّ ». (٢)

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الهلاك في شيئين: العجب والقنوط. **قال ابن قدامة المقدسي** معلقا: وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى. (٣)

وقال السري السقطي رحمه الله: ما رأيت شيئاً أحبطَ للأعمال، ولا أفسدَ للقلوب، ولا أسرعَ في هلاك العبد، ولا أدومَ للأحزان، ولا أقربَ للمقت، ولا ألزمَ لمحبة الرياء

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٧٦)

(٢) رواه البزار (٧٢٩٣) والخرائطي في اعتلال القلوب (١/ ٤٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٥٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والطبراني في الأوسط (٥٧٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وحسنه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة (٤/ ٤١٣)

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٢٣٤)

والعجب والرياسة، من قلة معرفة العبدِ لنفسه، ونظرِهِ في عيوب الناس! لاسيما إن كان مشهورا معروفا بالعبادة، وامتدَّ له الصيت حتى بلغ من الثناء ما لم يكن يؤمِّله. (١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: « إِنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ». (٢) **والحديث عند أحمد بلفظ**: « بَيْنَا رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَمَرَ الأَرْضَ فَبَلَعَتْهُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ». (٣)

مظاهر العجب

الله عز وجل أعلم بالإنسان من نفسه، والإنسان أعلم الناس بنفسه فهو أقدرهم على اكتشاف مظاهر العجب في نفسه، كما أن بعضها لا يخفى على الناس، فهناك بعض العلامات والأمارات التي تظهر في سلوك المعجب بنفسه منها:

١- كثرة الحديث عن نفسه وتزكيتها والرفع من شأنها.

فمن علامات العجب، الإكثار من الثناء على النفس ومدحها، لحاجة ولغير حاجة، تصريحاً أو تلميحاً، وقد يكون على هيئة ذم للنفس أو للآخرين، يراد به مدح النفس.

قيل للحسن البصري: من شر الناس، فقال: من يرى أنه أفضلهم. (٤)

٢- عدم سماع النصيحة، والاستعصاء على التوجيه والإرشاد.

٣- الفرح بسماع عيوب الآخرين خاصة الأقران

٤- رد الحق والترفع عن الاستجابة لداعيه.

---

(١) الطبقات الكبرى (ص٧٣)

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٨). (يتجلجل) أي يغوص في الأرض حين يخسف به والجلجلة حركة مع صوت.

(٣) مسند أحمد (٢/ ٤٩٧)

(٤) الذريعة الى مكارم الشريعة (ص: ٢١٧)

٥- احتقار الناس، وتصعير الخد لهم.

٦- الاستنكاف عن استشارة العقلاء والفضلاء.

٧- الاختيال والتبختر في المشي.

٨ - استعظام الطاعة واستكثارها، والمن على الله بها

٩- المباهاة بالعلم والتفاخر به وجعله وسيلة للمماراة والجدل.

١٠- التباهي بالأحساب والأنساب، واحتقار الناس من أجل ذلك.

١١- التفاخر بحسن الخلقة وجمال المنظر.

١٢- تعمد التقليل من شأن أهل الفضل من العلماء والمشايخ والأتقياء.

١٣- التكبر عن الاستماع لأهل العلم.

١٤- الإصرار على الأخطاء، وتعمد مخالفة الناس.

١٥- التصدر في المجالس وإن لم يكن أهلاً لذلك، لظنه أنه الأجدر بالصدارة.

١٦- الفتور عن الأعمال الصالحة والاتكال على ما قد عمل ظناً منه أنه قد وصل إلى مرحلة الكمال.

١٧- نسيان الذنوب واستقلالها.

١٨- توقع الجزاء الحسن والمغفرة وإجابة الدعاء دائماً.

١٩- احتقار العصاة والفساق.

٢٠- كثرة أحلام اليقظة بالاشتهار بين الناس.

أسباب العجب

مما لاشك فيه أن هناك أسبابًا عديدة من شأنها أن تهيئ المناخ المناسب لتسلل داء العُجب إلى النفوس، من أهمها:

السبب الأول: الجهل

obeikan.com

قال الغزالي رحمه الله: وعلة العجب الجهل المحض. (١) والجهل الذي هو سبب للعجب مركب من شقين: أولهما: جهل المعجب بحق ربه وقدره، وقلة علمه بأسمائه وصفاته، وضعف تعبده له تعالى بها.

ثانيهما: الغفلة عن حقيقة النفس، والجهل بطبيعتها وعيوبها، وإهمال محاسبتها.

ويدخل تحتهما: تجاهل النعم، ونسيان الذنوب، واستكثار الطاعات.

قال ابن القيم رحمه الله: رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة. (٢)

السبب الثاني: إطراء الناس للشخص وكثرة ثنائهم عليه مما يعين عليه الشيطان.

قال الماوردي رحمه الله: من أقوى أسباب العجب كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا، والتملق خديعة وملعبا، فإذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم. (٣)

عن أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: « وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: « مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧١)

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٩٢)

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٩)

مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ ». (١)

قال ابن بطال: حاصل النهي أن من أفرط في مدح آخر بما ليس فيه لم يأمن على الممدوح العجب لظنه أنه بتلك المنزلة فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالا على ما وصف به. (٢)

عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّ رَجُلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ رضي الله عنه، فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلاً ضَخْمًا، فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ ». (٣)

السبب الثالث: إهمال تزكية النفس

قال الغزالي رحمه الله: إن لم يشتغل العبد بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فإذا خاض في العلم - أي علم كان - صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. . . فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا. (٤)

السبب الرابع: قلة مخالطة الأكفاء ومقارنة نفسه بمن دونه

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم (٣٠٠٠)

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٧٧)

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٢)

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٨)

openkan.com

فيظن نفسه أحسن حالا من غيره، فيحماه ذلك على العجب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ ». (١)

السبب الخامس: تربية الأبوين (النشأة الأولى).

فقد ينشأ الإنسان في بيئة غلب عليها طبع العجب والكبر فيأخذ هذا الطبع منها، ويتأثر بمحيطه ومن حوله. يقول السيد محمد نوح: قد ينشأ بين أبوين يلمس منهما أو من أحدهما: حب المحمدة ودوام تزكية النفس إن بالحق وإن بالباطل والاستعصاء على النصح والإرشاد ونحو ذلك من مظاهر الإعجاب بالنفس فيحاكيهما وبمرور الزمن يتأثر بهما ويصبح الإعجاب بالنفس جزء من شخصيته إلا من رحم الله، وكما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منَّا. . . على ما كان عوده أبوه(٢)

السبب السادس: وجود نقاط ضعف في شخصية الفرد.

قال المأمون: ما تكبّر أحد إلّا لنقص وجده في نفسه ولا تطاول إلّا لوهن أحسنّ من نفسه. (٣)

قال ابن المعتز: لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا، ويرفع حقيرا، وليس بفاعل. (٤)

آثار العجب وثماره المُرّة

للعجب آثاره الوخيمة وثماره المرة على العبد في دينه ودنياه فمن آثاره:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣)

(٢) موسوعة الأخلاق الإسلامية – الدرر السنية (٢/ ٣٤٧)

(٣) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (١/ ٣٢١)

(٤) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٧)

١- أنه طريق إلى الغرور والكبر، وآثار الكبر المهلكة لا تخفى.

قال ابن قدامة: اعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة. (١)

فإذا اجتمع في المرء الكبر والإعجاب: فإنهما يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل. وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب؛ فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين. (٢)

٢- الحرمان من التوفيق والهداية

لأن الهداية إنما ينالها من أصلح قلبه وجاهد نفسه، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]

ومن صور هذا الحرمان: نسيان الذنوب واستصغارها، والعمى عن التقصير في الطاعات، والاستبداد بالرأي، والتعصب للباطل، وجحود الحق، وهذه الآثار في الجملة منها ما يقع سبباً للعجب، ثم يزداد ويستمر، ليبقى أثراً ثابتاً له.

٣- بطلان العمل والحجاب عن الرب

سئل رياح القيسي: يا أبا مهاجر ما الذي أفسد على العمال أعمالهم؟ فقال: حمد النفس، ونسيان النعم. (٣) قال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} [البقرة: ٢٦٤]

قال السعدي رحمه الله: ينهى عباده تعالى لطفا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى ففيه أن المنّ والأذى يبطل الصدقة. (١)

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٢٣٤)

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٦)

(٣) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص ٤٢٩.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « ثَلاَثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ ». (٢)

٤- العجز والكسل عن العمل؛ لأن المعجب يظن أنه بلغ المنتهى.

قال الغزالي: ومن أعظم آفات العجب أن يفتر العبد في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهذا هو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. (٣)

قال السفاريني: من أعجب بعمله منعه عجبه من الازدياد في الطاعة. ولهذا قيل: عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله، وما أضرّ العجب بالمحاسن. (٤)

قال ابن قدامة: فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها فكأنه يمنّ على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها، وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها، دون من رضيها وأعجب بها. (٥)

٥- الانهيار في أوقات المحن والشدائد

لأن المعجب يهمل نفسه من التزكية، فتخونه حينما يكون أحوج إليها، ويفقد عون الله ومعيته؛ لأنه ما عرف الله حال الرخاء، وتأمل ما أصاب الصحابة رضوان الله عليهم مع إيمانهم وصلاحهم، حين أعجب نفر منهم بكثرة العدد: { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } [التوبة: ٢٥] واليهود عليهم لعائن الله: { ظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١١٣)

(٢) رواه مسلم (١٠٦)

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٠)

(٤) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥٦٧)

(٥) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٢٣٤)

يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ } [الحشر: ٢].

٦- نفور الناس وكراهيتهم لأن الله يبغض المعجب ومَن يبغضه الله يضع له البغضاء في الأرض.

فالناس لا تحب من يُشعرها بنقصها، ويحدثها من علٍ. والناس لا تحب من يُكثر الافتخار بنفسه والمباهاة بإنجازاته. . لذلك قد ترى المُعجب بنفسه كثير المعارف لكنه قليل الأصحاب والأصدقاء.

قال الماوردي رحمه الله: أما الإعجاب فيخفي المحاسن، ويظهر المساوئ، ويكسب المذام، ويصد عن الفضائل. . وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حد، ولا إلى ما ينتهي إليه العجب من الجهل غاية، حتى إنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة، وبمذمة تهدم كل فضيلة، مع ما يثيره من حنق، ويكسبه من حقد. (١)

٧- العقوبة العاجلة أو الآجلة، كما خسف الله بالمتبختر المعجب الأرض.

علاج العجب:

من أراد أن يكسر العجب فعليه بعدة أشياء:

أولها أن يرى التوفيق من الله تعالى وأن ينسب الفضل لصاحب الفضل

فإذا رأى التوفيق من الله تعالى، فإنه يشتغل بالشكر، ولا يعجب بنفسه.

عن مسروق قال: بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه. (٢)

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٧)

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٨٢)

قال ابن القيم: فَالَّذِي يُخَلِّصُ العبد مِنْ رُؤْيَةِ عَمَلِهِ مُشَاهَدَتُهُ لِمِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَفَضْلِهِ وَتَوْفِيقِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَوْجَبَ عَمَلَهُ مَشِيئَةُ اللَّهِ لَا مَشِيئَتُهُ هُوَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: **٢٩**].

فَالْخَيْرُ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ وَبِهِ. لَا مِنَ الْعَبْدِ، وَلَا بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} [النور: **٢١**]، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: **٤٣**] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ

ﷺ : {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً} [الإسراء: **٧٤**]. وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: **٧**] الْآيَةَ.

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْعَبْدِ فَهُوَ مُجَرَّدُ فَضْلِ اللَّهِ وَمِنَّتِهِ، وَإِحْسَانِهِ وَنِعْمَتِهِ. وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ. (١)

تأمل هذا الكلام فإن نفعه عظيم لإسقاط الإعجاب بالعمل ورؤيته بتوفيق الله. ورؤية العمل واستكثاره ذنب كما أن استقلال المعصية ذنب.

والثاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه، فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها، واستقل عمله، ولا يعجب به.

والثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول، لا يعجب بنفسه.

فقبل أن تعجب بعملك تفكر هل قُبل منك هذا العمل أم لا؟

قال المروذي قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك فتغرغرت عينه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجا. (٢)

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٦)

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٤٥٤)

قال ابن القيم رحمه الله: وَالْعَارِفُ مَنْ صَغُرَتْ حَسَنَاتُهُ فِي عَيْنِهِ، وَعَظُمَتْ ذُنُوبُهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا صَغُرَتِ الْحَسَنَاتُ فِي عَيْنِكَ كَبُرَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكُلَّمَا كَبُرَتْ وَعَظُمَتْ فِي قَلْبِكَ قَلَّتْ وَصَغُرَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَسَيِّئَاتُكَ بِالْعَكْسِ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَحَقَّهُ وَمَا يَنْبَغِي لِعَظَمَتِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ تَلاَشَتْ حَسَنَاتُهُ عِنْدَهُ، وَصَغُرَتْ جِدًّا فِي عَيْنِهِ. (١)

والرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب، وكيف يعجب المرء بعلمه، ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب. (٢)

قال ابن القيم رحمه الله: علامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان. (٣)

الخامس: معرفة حقيقة الدنيا والآخرة

فالدنيا مزرعة هدف العبد فيها مرضاة الله تعالى وهو عز وجل لا يرضيه العجب، وكذا تذكّر الموت وما يكون بعده من الأهوال التي لا ينفع فيها إلا صالح العمل، والعجب يجعله هباء منثوراً.

قال الشافعي رحمه الله: إذا خفت على عملك العجب، فاذكر رضا من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب. فمن فكّر في ذلك صغر عنده عمله. (٤)

السادس: التحقق بالافتقار وإظهار الذل والافتقار للملك الجبار

فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٦)

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٤٨٧)

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٢٩٧)

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٢٦)

obeikan.com

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي. . . وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا.(١)

السابع: معرفة حقيقة النفس وعيوبها

أما عن حقيقتها فقد قال الماوردي رحمه الله: لو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة، وبلي به من مهنة، لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه، وسكوتا من نفوره. **قال الأحنف بن قيس**: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟!

وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال:

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته. . . انظر خَلاك فإن النتن تثريب

لو فكّر الناس فيما في بطونهم. . . ما استشعر الكبر شبانٌ ولا شيب

هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة. . . وهو بخمس من الأقذار مضروب

أنفٌ يسيل وأذنٌ ريحها سَهَكٌ. . . والعينُ مُرفضَّةٌ والثغر مَلْعوبُ

يا ابنَ التراب ومأكولَ التراب غدا. . . أقصرْ فإنك مأكولٌ ومشروب(٢)

وأما عن عيوبها فقد قال ابن حزم رحمه الله: من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه. فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنية، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٠)

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٨)

يظن أنه لا عيب فيه، فليعلم أنه مصيبة للأبد وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً. . . فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها وعن عيوب غيره التي لا تضره لا في الدنيا ولا في الآخرة. . . فارجع إلى نفسك، فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك، ولا تميل بين نفسك وبين من هو أكثر منها عيوباً فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لأهل الشر. (١)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، وإن من صلاح عملك أن ترفض عجبك، وإن من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك. (٢)

الثامن: إدراك عواقب العجب، وأنه طريق إلى الكبر المهلك.

ويكفي في ذلك حديث عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ». (٣)

التاسع: تعريض النفس بين الحين والحين لبعض المواقف التي تكبح جماح كبريائها، وتعرفها بمكانتها اللائقة كخدمة من هو أصغر منه، أو حمل متاعه بنفسه.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالسا ذات يوم، فمرت به جارية تحمل قربة، فقام، فأخذ منها القربة وحملها على عنقه حتى وداها ثم رجع، فقال له أصحابه: يرحمك الله يا أمير المؤمنين! ما حملك على هذا؟ قال: إن نفسي أعجبتني؛ فأردت أن أذلها. (٤)

ويقول رجاء بن حيوة: سهرت مع عمر بن عبد العزيز ليلة فجف القنديل من الدهن فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أمرت الغلام فصب في القنديل من الدهن، قال له:

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: ٦٦)

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٤٨٥)

(٣) رواه مسلم (٩١)

(٤) المجالسة وجواهر العلم (٦/ ٩١)

قد دأب يومه وإنما أخذ في نومه الساعة قلت: أفلا أقوم أنا فأصب في القنديل من الدهن؟ قال: لا. فقام هو فصب في القنديل من الدهن ثم رجع ثم قال: قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز، يا رجاء: إنه ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه. (١)

العاشر: النظر في سير السلف الصالح والتأسي بهم

عن نافع أن رجلا، قال لابن عمر: يا خير الناس وابن خير الناس، فقال ابن عمر: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله تعالى وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه. (٢)

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: إن مت ندفنك في حجرة رسول الله، فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إليّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك. (٣)

وقال إبراهيم التيمي رحمه الله: ما عرضت عملي على قولي إلا خشيت أن أكون مكذباً. (٤)

وقال هشام الدستوائي رحمه الله: والله ما أستطيع أن أقول أنِّي ذهبت يومًا قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل.

قلت "أي الذهبي ": والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولا لا لله، وحصلوه ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق. (٥)

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٣٨)

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٠٧)

(٣) صيد الخاطر (ص ٢٥٠)

(٤) الزهد لأحمد (ص ٢٩٣)، حلية الأولياء (٤/ ٢١١)

(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥٢)

مر المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته فقال له مالك: أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصفين؟ فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال له: أعرفك أحسن المعرفة. قال: وما تعرف عني قال: أما أوَّلك فنطفة مذرة وأما آخرك فجيفة قذرة وأنت بينهما تحمل العذرة! قال: فقال المهلب: الآن عرفتني حق المعرفة. (١)

فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال:

عجبت من معجب بصورته. . . وكان بالأمس نطفة مذره

وفي غد بعد حسن صورته. . . يصير في اللحد جيفة قذره

وهو على تيهه ونخوته. . . ما بين ثوبيه يحمل العذره(٢)

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٨٤)

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٧)

oberkan.com

ملف العدد
أسس وخطوات تزكية النفس

النفس بطبيعتها كثيرة التقلّب والتلوّن، تؤثر فيها المؤثّرات، وتعصف بها الأهواء والأدواء، فتجنح لها وتنقاد إليها، وهي في الأصل تسير بالعبد إلى الشرّ كما قال تعالى: [إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي] [يوسف: **٥٣**]، ولذا؛ فإن لها خطراً عظيماً على المرء إذا لم يستوقفها عند حدّها ويلجمها بلجام التقوى والخوف من الله، ويأطرها على الحق أطراً. (١)

قال لقمان الحكيم لابنه: يا بنيّ: إن الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفسَ حرون؛ فإن فتر سائقها ضلّت عن الطريق، وإن فتر قائدها حرنت، فإذا اجتمعا استقامت. إنّ النفس إذا أُطمعت طمعت، وإذا فوّضْت إليها أساءت، وإذا حملْتها على أمر الله صلحت، وإذا تركت الأمر إليها فسدت؛ فاحذر نفسك، واتهمها على دينك، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها، ولا بُدّ له منها. وإنّ الحكيم يذلّ نفسه بالمكاره حتى تعترف بالحق، وإنّ الأحمق يخيّر نفسه في الأخلاق: فما أحبّت منها أحبّ وما كرهت منها كره. (٢)

قال ابن القيم رحمه الله:

واحذر كمائنَ نفسِكَ اللاتي متَى. . . خَرجَتْ عليكَ كُسِرتَ كَسرَ مُهانِ(٣)

والإنسان ما دام حياً في هذه الدنيا تتوفر لديه فرصة الارتقاء في مدارج الكمال، فإن كان مبتلى بعيوب فعليه أن يتخلص منها ويصلح نفسه، وإن كان موفقاً بالتَّحلي

---

(١) محاسبة النفس ضرورة مُلِحّة. عبد الله محمد العسكر

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي (ص: **٤٢**)

(٣) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: **٢٠**)

بصفات نفس طيبة وأعمال جوارح حسنة، فعليه أن يسعى نحو الأحسن، ولكن الإصلاح وتهذيب النفس لا يأتي صدفة، وإنما هو نتيجة سعي الإنسان بعد توفيق الله تعالى له { وَأَن لَّيسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى }. (النجم: **٣٩**)

فما هو البرنامج الذي يساعده على ذلك؟

السؤال المطروح هنا: ما هي الخطوات المتّبعة لتهذيب النفس؟

خطوات تهذيب النفس

أولاً: يشارط نفسه على ما تفعله وتتركه.

ثانياً: يراقبها دائما في جميع الحالات ليمنعها من أي انحراف أو تقصير محتمل.

ثالثاً: يحاسبها ليرى مدى التزامها بما اشترطه عليها.

ويترتب على ذلك (ثواب عند الالتزام – عتاب – عقاب عند التقصير والتفريط)

رابعاً: يعاتبها لو تبين له عدم التزامها بما اشترطه عليها.

خامساً: له أن يعاقبها بعد إدانتها، فيمنعها من تحقيق شهواتها سيما في موارد تقصيرها.

سادسا: وكل ذلك يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة

هذه الخطوات هي البرنامج اليومي الذي ينبغي أن يلتزم به الإنسان إذا أراد تزكية نفسه.

هذا على نحو الإجمال وسنتحدث عن هذه المراحل بشيء من التفصيل.

المقام الأول المشارطة

والمُشارطة هي: إلزامُ النفس بعمل الصالحات وترك المنكرات والمحافظة على الأوقات

كيفية التطبيق: أن يشارط الإنسان نفسه في أول يومه على أمرين:

– حفظ الجوارح – حفظ الأوقات عن الضياع

أولا حفظ الجوارح: أن يلتزم أوامر الشرع وأن يجتنب نواهيه ويقف عند حدوده مع كل فعل يفعله أو قول يقوله طوال يومه، ويتخذ قرارا بذلك ويعزم عليه ويعاهد ربه الصدق.

و يكون ذلك عند كل شخص بحسبه:

١ - فمن كان تاركا لبعض الواجبات فعليه أن يعزم على أن لا يترك واجباً

٢ - ومن كان فاعلا للمحرمات فعليه أن يعزم على تركها

٣- وأما من كان قد ترفّع عن هذين الأمرين بحيث كان يفعل الواجب ويترك المحرم فعليه أن يعزم على الثبات، ويستغل أوقاته في تحصيل الفضائل والمستحبات

قال ابن القيم رحمه الله: يشارط نفسه أولا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال، والربح بعد ذلك. فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح؟ وهذه الجوارح السبعة وهى العين، والأذن، والفم، واللسان والفرج، واليد، والرجل: فهذه هي مراكب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها. وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها فحفظها أساسُ كل خير، وإهمالها أساسُ كل شر.

قال تعالى: {قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيحفظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور: ٣٠].

وقال تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولا} [الإسراء: ٣٧]

وقال تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}. [الإسراء: ٣٦]

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨]. (١)

ثانيا: حفظ الأوقات عن الضياع

قال الغزالي رحمه الله: إذا أصبح العبد وفرغ مِن فريضة الصبح ينبغي أن يُفرِّغ قلبَه لمشارطة النفس فيقول لها: ما لي بضاعة إلا العمُر، وإذا فني فقد فني رأس المال ووقع

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨٠)

اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأَ في أجلي وأنعم عليَّ به، ولو توفاني لكنتُ أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا، فاحسَبي أنكِ قد توفيت ثم قد رددت فإياكِ ثم إياكِ أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفَسٍ من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، فلا تميلي إلى الكسل والدَّعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرُك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك، وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق، **وقد قال بعضهم:** هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين. أشار به إلى الغبن والحسرة، وقال الله تعالى: {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن } [التغابن: **٩**] فهذه وصيته لنفسه في أوقاته. (١)

في أذكار الصباح تقول: ((وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)). (٢)

ثانيا مقام المراقبة

وبعد هذه المشارطة عليك أن تنتقل إلى "المراقبة"

والمراقبة هي: ملاحظةُ ما اشترطه على نفسك في كل وقت.

قال ابن القيم رحمه الله: فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رَتَعَتْ في الخيانة ولابد، فإن تمادَى على الإهمال تمادتْ في الخيانة حتى تُذهب رأس المال كله. (٣)

أهمية الاستمرار في المراقبة:

قال ابن حزم رحمه الله: إهمال سَاعَة يُفْسد رياضة سنة. (٤)

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (ص: **٣٠٥**)

(٢) رواه البخاري (**٦٣٢٣**) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠)

(٤) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص: **٣٣**)

كيفية تطبيق المراقبة: أن تنتبه طوال اليوم إلى عملك، فإذا حدثتك نفسك أو زيَّن لك الشيطان، أن ترتكب معصية لله تعالى أو تقصر في طاعة من الطاعات – وهذا أمر ممكن الحصول لأن الشيطان وجنده لن يدعوك تهزمهم بهذه السهولة، فهم يريدونك أن تتراجع عمّا اشترطته على نفسك – فاستعذ بالله من شرهم، واستعن بالله عليهم وتذكر دائما نظرَ الله إليك، فهذا أعظم ما يعينك على دوام الاستقامة في كل أوقاتك.

قَالَ رَجُلٌ للجنيد: بِمَ أَسْتَعِينُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ؟ فَقَالَ: بِعِلْمِكَ أَنَّ نَظَرَ النَّاظِرِ إِلَيْكَ أَسْبَقُ مِنْ نَظَرِكَ إِلَى الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ. (١)

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم سلمة بن دينار: أوصني وأوجز. فقال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، عظم ربَّك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. (٢)

واعلم أن المراقبة لا تتعارض مع أي عمل من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل حتى يحين وقت المحاسبة.

ثالثا مقام المحاسبة

وأما "المحاسبة" فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع الله، أم قصرتَ في ذلك؟

قال الماوردي في معنى المحاسبة: أن يتصفّح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل. (٣)

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (ص: ٣٠٧)

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٤٧)

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٥٦)

وقال ابن القيم رحمه الله: هي التمييز بين ما له وما عليه (يقصد العبد) فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه؛ لأنه مسافرٌ سَفَرَ من لا يعود. (١)

قال ابن القيم رحمه الله: فمتى أحسَّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران، فإذا أَحَسَّ بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن، والاستبدال بغيره، فإنه لابد له منه فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله.

قال الْحَسَن البصري رحمه الله: إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ. (٢)

الأسباب المعينة على المحاسبة

قال ابن القيم رحمه الله: ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة:

١- معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا.

قَالَ تَعَالَى: { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } [آلِ عِمْرَانَ: ٣٠]

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨]. (٣)

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٨٧)

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٥)

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٢) والزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٩٩)

وعَنِ الْحَسَنِ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: الْمُؤْمِنُ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ. (١)

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: إِخْوَانِي: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ وَأَعِدُّوا لِلسُّؤَالِ صَحِيحَ الْجَوَابِ. (٢)

٢- معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى

فإذا تيقن العبد هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد. فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا. وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً} [آل عمران: ٣٠]. (٣)

٣ - النظر فيما يؤول إليه ترك محاسبة النفس من الهلاك والدمار، ودخول النار والحجاب عن الرب تعالى ومجاورة أهل الكفر والضلال والخبث.

٤ - صحبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم ويطلعونه على عيوب نفسه، وترك صحبة من عداهم.

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٦٠)

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٣٤٠)

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨٠)

٥ – النظر في أخبار أهل المحاسبة والمراقبة من سلفنا الصالح.

٦ – زيارة القبور والتأمل في أحوال الموتى الذين لا يستطيعون محاسبة أنفسهم أو تدارك ما فاتهم.

٧ – حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير فإنها تدعو إلى محاسبة النفس.

٨ – قيام الليل وقراءة القرآن والتقرب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات.

٩ – البعد عن أماكن اللهو والغفلة فإنها تنسي الإنسان محاسبة نفسه.

١٠ – ذكر الله تعالى ودعاؤه بأن يجعله من أهل المحاسبة والمراقبة، وأن يوفقه لكل خير.

١١ – سوء الظن بالنفس، فإن حسن الظن بالنفس ينسي محاسبة النفس، وربما رأى الإنسان بسبب حسن ظنه بنفسه عيوبه ومساوئه كمالاً.

أنواع المحاسبة وأقسامها من حيث وقتها

قال ابن القيم رحمه الله: ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن البصري: رحم اللهُ عبدا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخَّر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهمّ به العبد، وقف **أولا ونظر:** ١– هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورا لم يقدم عليه وإن كان مقدورا وقف وقفة أخرى ونظر:

٢– هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر:

٣– هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس

الشرك. ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر

٤- هل هو معانٌ عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار، وإن وجده معانا عليه فليقدم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل، فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورا له، ولا كل ما يكون مقدورا له يكون فعله خيرا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون معانا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي. وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور، وهى: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به. (١)

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨١ - ٨٢)

ثمرات المحاسبة

وفى محاسبة النفس عدة مصالح منها:

١- الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى.

عن أبى الدرداء ﷺ قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا.

٢ - ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى عليه. ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهى قليلة المنفعة جدا.

فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العبد. فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والازدراء عليها، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي الله، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذى لربه عليه عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذى أيأسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم. ومن هاهنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانيا؟ وأفضل الفكرِ الفكرُ في ذلك؛ فإنه يُسَيِّر القلبَ إلى الله ويطرحه بين يديه ذليلا خاضعًا منكسراً. (١)

٣- تزكية النفس وتطهيرها وإصلاحها وإلزامها أمْر الله تعالى. قال تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] [الشمس: ٩، ١٠]

وقال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم ذمّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائداً. (٢)

٤ - أنها تربّي عند الإنسان الضمير داخل النفس، وتنمّي في الذات الشعور بالمسؤولية ووزن الأعمال والتصرّفات بميزان دقيق هو ميزان الشرع.

حكى الغزالي أنّ أبا بكر رضي الله عنه قال لعائشة رضي الله عنها عند الموت: ما أحدٌ من الناس أحبّ إليّ من عمر) ثم قال لها: (كيف قلتُ؟) فأعادت عليه ما قال، فقال: ما أحدٌ أعزّ عليّ من عمر. ! ! **يقول الغزالي**: فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبّرها وأبدلها بكلمة غيرها. (٣)

المعاتبة والمعاقبة

بعد أن يشترط الإنسان على نفسه ويراقبها ويحاسبها فإن تبين له أنها ارتكبت ما يخالف الشرط الذي اشترطه عليها، فلابد أن يعاتبها ثم يعاقبها من أجل أن تتم صفقته ويجني ثمارها، وإلا فلم يجد إلا أنه قد أهدر عمره وقد خسر رأس ماله في صفقة خاسرة لم يتدارك الخسارة فيها من أولها.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨٤ - ٨٩) باختصار.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٥)

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٤)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: مَنْ مَقَتَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ؛ آمَنَهُ اللَّهُ مِنْ مَقْتِهِ. (١)

قال مَالِك بْن دِينَارٍ رحمه الله: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ لِنَفْسِهِ: أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ ثُمَّ ذَمَّهَا ثُمَّ خَطَمَهَا، ثُمَّ أَلْزَمَهَا كِتَابَ اللَّهِ؛ فَكَانَ لَهَا قَائِدًا. (٢)

قال ابن القيم رحمه الله: ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو به بالعمل. (٣)

قال ابن القيم رحمه الله: فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء؛ فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج منها، والتخلص من رقها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتا لها.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفرى، فقال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: إن الإنسان لظلوم كفار.

وجاء رجل يشكو إلى عمر وهو مشغول فقال له: أَتَتْرُكون الخليفة حين يكون فارغاً حتى إذا شُغِل بأمر المسلمين أتيتموه؟ وضربه بالدرّة، فانصرف الرجل حزيناً، فتذكّر عمر أنه ظلمه، فدعا به وأعطاه الدرّة، وقال له: اضربني كما ضربتُك. فأبى الرجل وقال: تركت حقي لله ولك. فقال عمر: إما أن تتركه لله فقط، وإما أن تأخذ حقّك! فقال الرجل: تركته لله. فانصرف عمر إلى منزله فصلّى ركعتين ثم جلس يقول لنفسه: يا ابن الخطاب: كنتَ وضيعاً فرفعك الله، وضالاً فهداك الله، وضعيفاً فأعزّك الله،

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٧٢)

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٦)

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٨٧/١)

وجعلك خليفةً فأتى رجلٌ يستعين بك على دفع الظلم فظلمتَه؟! ! ما تقول لربّك غداً إذا أتيتَه؟ وظلّ يحاسب نفسَه حتى أشفق الناس عليه. (١)

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الذين اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ} [فاطر: **٣٢**]. فقالت: يا بنى، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضي علي عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال: فجعلت نفسها معنا!. (٢)

– **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمًا وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ يقول: عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ وَاللَّهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللَّهَ، ابْنَ الْخَطَّابِ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ. (٣)

– **قال إبراهيم التّيميّ**: مثّلت نفسي في الجنّة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثمّ مثّلت نفسي في النّار آكل من زقّومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها، وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي، أيّ شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أردّ إلى الدّنيا، فأعمل صالحا، قال: قلت: فأنت في الأمنيّة، فاعملي. (٤)

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن الجوزي، ١٧١.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨٦)

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٢٣)

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٥)

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حِس يا حُنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ويبكى. (١)

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأف لي وتف.

كيف تعاتب نفسك؟

قال ابن قدامة رحمه الله: اعلم أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أُمرتَ بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل الدهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها.

وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدرى إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربى ذلك بالقعود ساعة في الحمام، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكلات. (٢)

العقوبة

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧٩)

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٧)

قال ابن القيم رحمه الله: النفس كالعدو إن عرفت منك صوله الجِدّ استأسرت لك، وإن أَنِستْ عنك المهانة أسرتكَ؛ أمنعها ملذوذ مباحاتها ليقع الصلح على ترك الحرام فإذا ضجَّت لطلب المباح فإما منا بعدُ وإما فداء. (١)

قال ابن قدامة رحمه الله: فإذا حاسب الإنسان نفسه فرأى منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يمهلها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده. (٢)

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه شغل ببعض الأمر عن صلاة المغرب حتى طلع نجمان، فلما فرغ من صلاته تلك أعتق رقبتين. (٣)

و روى عن عمر رضي الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر، فقال: إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين. قال الليث: إنما فاتته الجماعة.

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة؛ وأخَّر ليلةً صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين، وشغله أمرٌ عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين. (٤)

وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فاعتق رقبة

وحكي أن تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٥)

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٤)

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١/ ١٨٧)

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٨)

obeikan.com

ومرّ حسان بن سنان بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها. (١)

عن عبد الله بن عون رحمه الله: أنه نادته أمه فأجابها فعَلا صوتُه صوتَها فأعتق رقبتين. (٢)

قال عبد الله بْن وَهْبٍ رحمه الله: نَذَرتُ أَنِّي كُلَّمَا اغْتَبْتُ إِنْسَاناً أَنْ أَصُوْمَ يَوْماً، فَأَجْهَدَنِي، فَكُنْتُ أَغْتَابُ وَأَصُوْمُ، فَنَوَيْتُ أَنِّي كُلَّمَا اغْتَبتُ إِنْسَاناً، أَنْ أَتَصَدَّقَ بِدِرْهَمٍ، فَمِنْ حُبِّ الدَّرَاهِمِ تَرَكتُ الغِيْبَةَ.

قال الذهبي: هكذا والله كان العلماء، وهذا هو ثمرة العلم النافع. (٣)

العقوبة على قدر المخالفة

لابد أن يكون العقاب ضمن الموازين الشرعية فلا ينبغي للإنسان أن يعاقب نفسه بأي عقاب، كما قد يفعل بعض الناس كأن يعذبون أنفسهم بشكل مؤذٍ وخطير، أو بأعمال أو أقوال مبناها على الاستحسان العقلي بعيدا عن الشرع.

وفي جميع أحوالك تحتاج إلى: المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل، أو وردٍ من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة، وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٥)

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٣٩)

(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٢٨)

قال ابن المبارك: إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً.

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعا. (١)

كيفية المجاهدة:

يقول ابن الجوزي رحمه الله: جهاد النفس من أعظم الجهاد.

فما دامت على الجادة لم يضايقها، وإذا رآها قد مالت ردها باللطف، فإذا ضعفت وأبت فبالعنف، كالزوجة، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم. (٢)

قال القشيريّ: أصل مجاهدة النّفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها.

وللنّفس صفتان: انهماك في الشّهوات، وامتناع عن الطّاعات، فالمجاهدة تقع بحسب ذلك. **قال بعض الأئمّة:** جهاد النّفس داخل في جهاد العدوّ، فإنّ الأعداء ثلاثة: رأسهم الشّيطان، ثمّ النّفس لأنّها تدعو إلى اللّذّات المفضية إلى الوقوع في الحرام الّذي يسخط الرّبّ، الشّيطان هو المعين لها على ذلك ويزيّنه لها.

فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدة نفسه حملها على اتّباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٥)

(٢) صيد الخاطر (ص: ٨١)

obeikan.com

وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدّين، فالأوّل: الجهاد الباطن والثّاني: الجهاد الظّاهر.

وأقوى المعين على جهاد النّفس جهاد الشّيطان بدفع ما يلقي إليه من الشّبهة والشّكّ، ثمّ تحسين ما نهي عنه من المحرّمات، ثمّ ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشّبهات، وتمام المجاهدة أن يكون متيقّظا لنفسه في جميع أحواله، فإنّه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيّات وبالله التّوفيق. (١)

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٨)

obeikan.com

الفهـــرس

{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}..... ٢
دروس وعبر من حديث الهجرة..... ٥
منْـزِلَةُ الْمُحَـاسِبَةِ..... ١٤
الصلاة..... أمُّ العبادات..... ٢٢
أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته ٣١
المعاني الإيمانية من قصة الغامدية..... ٤٦
أنقذوا أنفسكم من النار..... ٦٠
القواعد المهمة في تربية أبناء الأمة..... ٧٠
العُجب: حقيقته ومظاهره وأسبابه وعلاجه..... ٨٣
ملف العدد، أسس وخطوات تزكية النفس ١٠١

obeikan.com